



111
L10

A 50

297.09

A16aA

C.1



عَلَى وَعَالِشْتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

وصف جديد للخصومة
السياسية بينهما وأثرها
وخطرها في تاريخ الإسلام

بقلم

عمر أبو النصر

القاهرة

[١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م]

مطبعة نوا الطبع والنشر لصاحب
دار اجيئة الكتب العربية
بيوتى البياى الحلبى وشبىركاه

cat: 10F d: 53



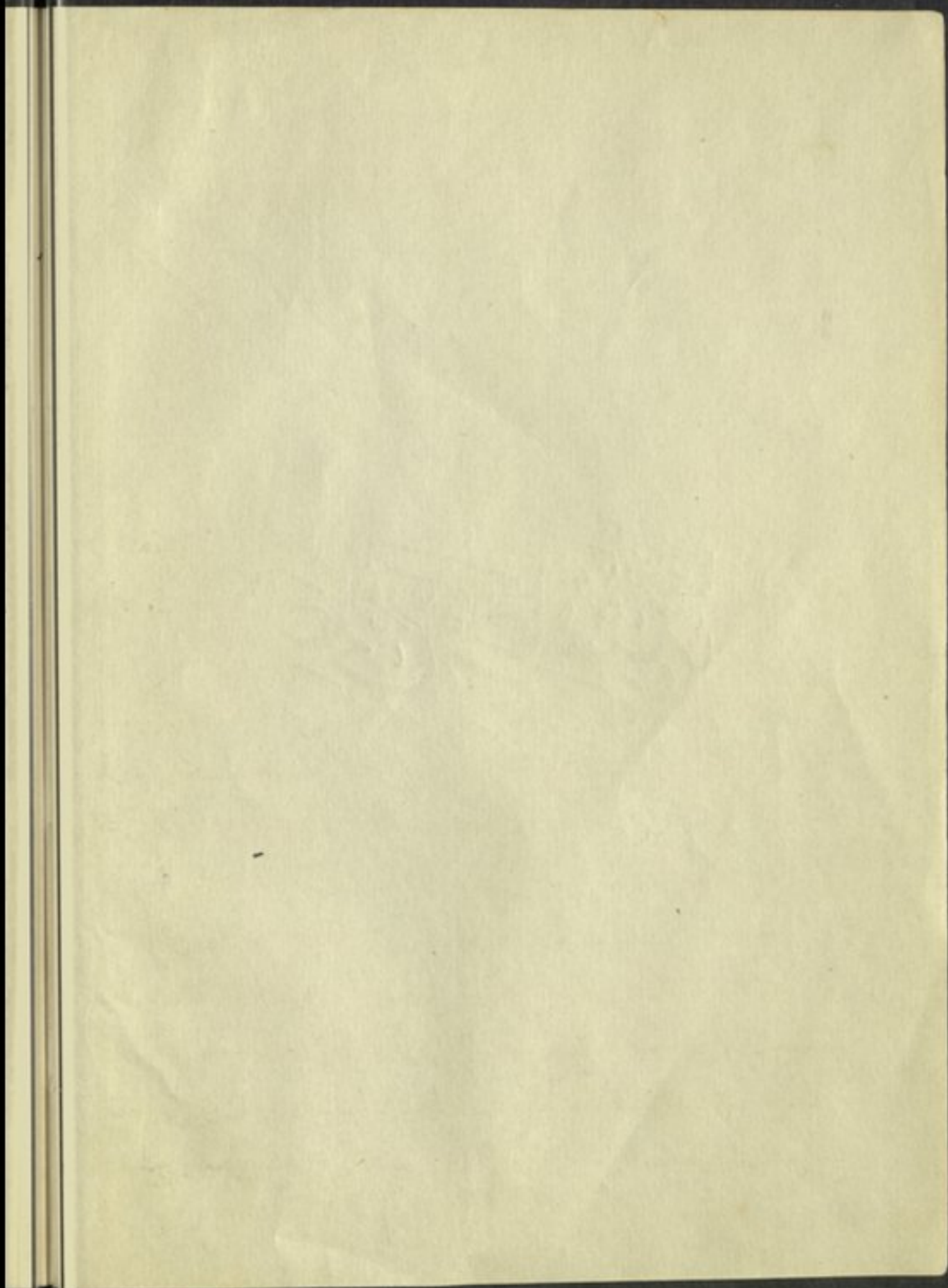
1954

1954

1954

1954

عَلِيٌّ وَعَاشِيَةٌ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الكتاب قصة خلاف لعب فيه في الدور الأول شخصيتان لهما مكاتهما في الإ—لام وتاريخ العربية... ولا يزال أثر هذا الخلاف بيننا ظاهراً قويا حتى اليوم ، فان كنت عرضت له في شيء من الاعتدال كثير ، وفي مثله من ضبط النفس ، مع التحري عن أصدق المصادر وأوثقها ، فمرد ذلك أنى أو من الإيمان كله بأن مثل هذه الأحداث الشائكة تقع في تاريخ كل أمة من الأمم ، فلا تمنعها عن المضي في سبيلها حيث تأخذ مكانها من صدر الوجود ...

وحري بنا وقد أخذنا نشعر بأننا أمة ، وأن من حقنا أن نحيا ، وأن من واجبنا أن نعيد دورة الفلك ، يوم كان أجدادنا يبنون الدنيا ، ويقيمون موازين العدل والإحسان ، أن نعرض لهذه الأحداث المؤلمة التي صدمتنا أول عهدنا بإنشاء الممالك ، وفتح الأرض ، ليكون فيها من العبرة لمن يأتي بعدنا ، والعظة لمن يرث أرضنا من أبنائنا ، فلا ينظر إلى السلطان والملك إلا أنه سبيل للإصلاح والعمل المنتج ، ولا ينظر إلى الحزبية إلا أنها حدث عارض إذا دلت

على شيء ، فعلى أن الاختلاف السياسي لا يجب أن يعدو غايته من أنه رأى ثان
يظن صاحبه أنه أفضل وأصلح لقوام الأمة ومصالحة المجموع ...

وأما أن يتعدى الاختلاف السياسي غايته هذه ، فيبدو جافاً ، ويظهر ثورة
غماء ، وحقداً مقصوداً وكرها ليس له ما يبرره ، فدليل على ضعف النضج
السياسي في الأمة ، وبرهان على أنها لا تزال مائة لا تصلح للحكم ولا للسلطان ..

* * *

لما كانت الحديبية ، وتنادى المسلمون وأهل مكة لكتابة العهد فيما بينهما ،
أبت قريش في المعاهدة التي صار توقيعها بين الفريقين أن يذكر محمد بن عبد الله
كرسول الله ، وحجتهم أنه لو كان رسول الله حقاً عندهم ، لما خالفوا ولا حاربوا ،
وتقبل رسول الله أنكار القوم برحابة صدر أدهشت المسلمين قبل المشركين ،
وكادت تفسد أمرهم ، وتم لقريش ما أرادت ، وعاد المسلمون وقد ملأهم من
اليأس شيء كثير .. ولـكن الأيام أكدت بعد نظر رسول الله ، وصواب رأيه
إذا اعترفت قريش في هذه المعاهدة لأول مرة بسُلطان محمد ودولته الجديدة ،
وما عتمت هذه الدولة العربية الناشئة أن أدالت قريشا عن استقلالها الذاتي ،
لم يضرب في سبيل هذا الفتح المبين سيف إلا ما كان من بعض الغوغاء الذين
تكلفوا المقاومة عند دخول مكة ، فذهبوا بين قتيل وجريح ، لما صدمهم
خالد بن الوليد برجاله ، وقد أنكر رسول الله ذلك إذ كان يريد الفتح لينا منزلها
عن العنف والدم ...

وتم إسلام المخالفين ، وتناسى المسلمون حديث هذه الماضيات من الأيام ، وغفر الله ورسوله للجميع ما صدر عنهم من خطأ سابق ، وتنادى شباب العرب جميعاً لإنشاء الدنيا الجديدة ، ونشر الدين الجديد . . . صفا واحداً ، وجهة واحدة ، وقد تأثروا جميعاً بسماحة الرسول وكرم أخلاقه وتناسوا ما كان بينهم من خلاف وحزبية وبغضاء . . .

ومثل هذا حدث في معركة الجمل ، فقد وقعت الواقعة وكانت المعركة وذهب ضحيتها آلاف من المسلمين ، ثم نرى أمير المؤمنين على بن أبي طالب لا يأمر بالإجهاز على جريح ، ولا مطاردة هارب ، وزار عائشة واستغفر لها ، ثم بعثها إلى مكة مكرمة تخفرها جماعة من سيدات المسلمين . . .

* * *

وإذا كان هذا موقف الرسول والإمام من هذه المواقف الجاهمة ، والأحداث السالفة ، يتكفون مداراتها وتسويتها بالتى هى أحسن ، فإذا انتهى أمرها وثاب الناس إلى أحلامهم ، تناسوها وكأن شيئاً لم يكن ، وعمدوا إلى المثل العليا ينشرون رباها ، ويوزعون أريجها ، ويبنون الدنيا الجديدة على أنها توحيد فى الدين ، وتوحيد فى السياسة . . .

* * *

ينخيل إلى أن أشياء من هذا سوف تكون أمراً منظوراً مع الأيام ، فلسوف يعود إلى هذا الجيل وعيه القومى ، ولسوف يتفهم هذا الشباب الناشئ ما فى سياسة الرسول من رحابة وسماحة وحلم لا يتخللها غضب ولا حفيظة ولا حقد . . .

وما كان لمثله أن يتكلف من هذا لا كثيراً ولا قليلاً ، وما كان لنا ، وهو مثلنا
الأعلى في الوعي القومي والروح القومية ، أن تتجافى سياسته وتببع غير سبيله ،
وأمامنا دنيا العرب لا نوليها من اهتمامنا بقدر ما نولى أخطاءنا السابقة ،
ومنازعتنا الحاضرة ، حتى كأنا نعيش في ظلام القرون الماضية ، لافي حديد القرن
العشرين وثورة العصر الجديد . . .

القاهرة ١٦ آذار سنة ١٩٤٧

المؤلف

الفصل الأول

المؤامرة

الحزب الأول

في الساعات التي تقطعت بين وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيعة الخليفة الأول ، خلت الدولة الإسلامية الناشئة من الأداة الحكومية التنفيذية التي كانت ممثلة في رسول الله ، فتعطلت المصالح ، وتأجلت الأحكام ، وتوقف الجيش المنحفر لغزو بقيادة أسامة بن زيد ، وعمّ الساميين وجوم عظيم كان أثره ظاهراً بيناً في هذه الحيرة التي تولت جماعة المدينة لا فرق في ذلك بين كبيرهم وصغيرهم ، نساءً ورجالاً ، شيوخاً وأطفالاً .

وكان من أثر هذه الحيرة خارج المدينة وبين القبائل العربية الجديدة الإسلام ، لما بلغها النبأ الصاعق ، أن ارتد أكثرها ، متحفظاً للعودة إلى ما كان ينعم به سابقاً وقبل الإسلام من استقلال ذاتي فردي وجاهلية .

وأما في المدينة فلما استعاد الناس روعهم بعد ساعات ، ظهر على مسرح السياسة العربية ثلاثة أحزاب جديدة . . كان أحدها محتماً في قلوب أصحابه قبل وفاة رسول الله بأيام ، وهو حزب الهاشميين الذي كان أول الأحزاب

الثلاثة ظهوراً . . والمصادر التاريخية التي بين أيدينا تؤكد أن العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله تحدث إلى علي بن أبي طالب في غمرة المرض بأن يسأل رسول الله عن نصيب بني هاشم في هذا الأمر ، فإذا كان لهم منه شيء ، لم ينازعهم فيه أحد ، وإن كان لغيرهم ، أو كان لسواهم فيه حق أوصى بهم خيراً ، فرفض علي أن يسأل رسول الله شيئاً وحجته أن كلمة من رسول الله بدفعهم عن الخلافة تدفعهم عنها إلى يوم القيامة . .

وسواء أضح هذا الخبر أم لم يضح ، فليس هناك ما يمنع الهاشميين من التفكير في نصيبهم من هذا الأمر قبل وفاة الرسول ، وهم أهله وعشيرته ، ومن أولى من عتره النبي وأهله بإرثه ؟

أليس من عادة الملوك إذا آتاهم الله الملك أن يرثهم أهلهم ، وأن يقوم بعدهم أبناؤهم ، أو من يقوم من أهلهم مقام أبنائهم إذا لم يكن لهم أبناء من الذكور ؟

ولكن أحداً من الهاشميين كما يظهر لم يتحدث إلى أحد من غير الأهل بأغراضه السياسية وآماله الملكية ، فظلت الفكرة في قلوب أصحابها تنتظر للفرصة السانحة للظهور ، لا يدور بخلد أحدهم أن هناك بين المساميين من ينافسهم هذا الحق ، أو يدفعهم عنه ، وهو ما حمل علياً على أن لا يسأل رسول الله عن نصيب بني هاشم في هذا الأمر مخافة أن يدفعه رسول الله عنهم ؛ وقد عرفوا فيه الترفع عن الدنيا ، والرغبة في أن يجنب أهله المناصب الحكومية ما كان إلى ذلك سبيل . .

حزب الأنصار

فلما قبض رسول الله إلى الملاء الأعلى ، ظهرت على مسرح السياسة الإسلامية ظاهرة جديدة لم يكن يظن أحد إلى أنها قد تقع أو تكون . . . وهي مطالبة الأنصار بالأمر ، ودعوتهم إلى أن يكون الساطن فيهم ، لأن الدين إنما قام على سواعدهم ، ولولا تأييدهم رسول الله ونصرتهم له بعد أن بذل له قومه الحرب والعدوان لما نشط الاسلام ، واستتب له الأمر ، وطوى الجزيرة قاصيها ودانيها . . . واجتمع الأنصار ولما يدفن رسول الله ، يبحثون أمرهم فيما بينهم ، ومن يكون خليفة رسول الله منهم ، فيأتيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، يدافعون عن حق المهاجرين في هذا الأمر ، ويكون حوار ونقاش ينتهيان بمبايعة الأنصار لأبي بكر ، متنازلين بذلك عما كانوا يدعونه من حق في الخلافة ، بعد أن أكد لهم أبو بكر أن هذا الأمر يجب أن يكون في المهاجرين ، وأنه إذا كان هناك من حق للأنصار فهم الوزراء والمهاجرون الأمراء . . .

بسته
التي فيه

الحزب الحكومي

وكذلك ظفر المهاجرون الذين كانوا بزعامة أبي بكر وعمر بالمعركة السياسية الأولى فتم لهم الأمر ، وتولى الخلافة أحدهم ، وتنازل الأنصار عن دعوتهم وأجمعت كلمة المسلمين على بيعة أبي بكر إلا ما كان من بعض الهاشميين وعلى رأسهم علي ابن أبي طالب الذي بايع وأنصاره أبا بكر بعد تردد ، أو بعد وفاة فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهما على قول بعض المؤرخين .

ولم تكن مبايعة على لأبي بكر تنازلاً منه عن حق ينادى به ، وإنما كانت عملاً سياسياً لبقاً توافرت على تأييده وفرضه عوامل مختلفة أهمها اجماع المسلمين على خلافة أبي بكر ، ومقام الخليفة الأول في الاسلام وعند رسول الله ، وكون أبي بكر شيخاً لن يطول به الأمر حتى يذهب لمآبه ، وكونه من قبيلة لم تتوفر لها مساجلة بنى هاشم ، ولا كانت ممن تقوم للهاشميين في معرض المباهاة والمساجلة ، وإذا أضفنا إلى هذا أن علياً كان لا يزال في هذا العهد شاباً يضرب في الثلاثين ، والعرب تكره حكم الشباب ولا تُطبقه مع وجود من هو أسن منه ، أدركنا جملة الأسباب التي توافرت حتى حملت علياً على قبول الأمر الواقع ، وانتظار الفرصة السانحة المقبلة . .

وإذن فنحن الآن وبعد وفاة رسول الله وخلافة أبي بكر أمام حزينين لثالث لهما ، حزب الحكومة القائمة ، الممثل في أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، وحزب الهاشميين الممثل في علي والعباس وغيرها من بنى هاشم ، وأما الحزب الأموي فلم يكن قد ظهر على المسرح السياسي . .

المفسر فوره والمؤامرة المزعومة

هذا هو الموقف الحزبي السياسي في هذه الفترة من نشوء الدولة الإسلامية الأولى بسطناه بأقصى ما يكون من الجلاء والوضوح ، ولكن بعض المستشرقين يذهبون إلى أن الخليفة الأول إنما وصل إلى الخلافة بمؤامرة مدبرة حيثك أصولها ورتبت أطرافها بكل عناية وإحكام .

وأما أبطال المؤامرة فنلاثة رجال ، أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وأما صاحب

الاكتشاف فالأب لا منس للمستشرق الذائع الصيت وصاحب الأبحاث الضخمة في نشوء الإسلام وقياس الدولة الأموية ، وليس الخبر من مخترعات لا منس بكل ما في الكلمة من معنى ، فقد رددته قبله بعض مؤرخي الشيعة وعرض له ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة وهو من معتدلي الشيعة . . ولكن لا منس أضفى عليه ثوباً رائعاً من حسن الحبك وجمال التصوير ، واعتمد عليه كمصدر من المصادر التاريخية الموثوقة في دراساته وإبحاثه . .

يقول لا منس إن الخليفة الأول كان أدهى أصحاب محمد، وأكثرهم لباقية وأبعدهم نظراً وإنه كان يمّنى نفسه منذ زمن بعيد بعرش محمد وخلافته يؤيده في ذلك عمر وأبو عبيدة وكان الاتفاق تاماً بين الثلاثة . . يتولى الأول الخلافة بمساعدة عمرو وأبي عبيدة، فإذا وفق لها، فعليه أن يوطد الأمر لعمر، وهذا بدوره يرشح أبا عبيدة ليكون الخليفة من بعده . .

وصار تنفيذ هذا الاتفاق السياسي المعقود بين الثلاثة على أفضل وأيسر ما يرجوه كل واحد منهم، فوطد أبو بكر الأمر للفاروق ولأبي عبيدة، بأن قلده عمر القضاء وأبا عبيدة النية ، فلما آذنت شمس حياته بمغيب عهد إلى الفاروق بالخلافة ، بعد أن استوثق له من الصحابة أو بعد أن جعلهم أمام الأمر الواقع . . فلما ولي عمر الخلافة أنفذ أبا عبيدة إلى الشام يقامم خالداً أمجاد الانتصارات الحربية التي كانت تضيفها المعارك عليه بعد أن جعله قائداً عاماً على الجيوش الإسلامية في سورية وفلسطين ، ولكن أبا عبيدة توفي في خلافة الفاروق فلم ينل حصته من المؤامرة ، وعاد المسلمون إلى الشورى ، بعد أن حرموا منها طيلة الأعوام الماضية . .

امرأتاه

ولم يغفل الأب لا منس عن تسمية ما قدمناه (مؤامرة سياسية) كما لم ينس الظاهرة الخطيرة في مثل هذا الموقف من إقحام بعض النساء في هذه المغامرة السياسية ، بحيث تتوفر لها كل شروط الحبك والتأليف . . وقد وقع اختياره على عائشة وحفصة من زوجات النبي ، والأولى بنت أبي بكر والثانية بنت عمر بن الخطاب ، ولو تزوج رسول الله بنت أبي عبيدة مثلاً لأشركها لا منس في المؤامرة حتماً ، فخرجت مؤامرتة هذه تضطرب في ثلاثة رجال وامرأتين . .

ولكن المصادر العربية لا تؤيد شيئاً ولو يسيراً من هذا فليس هناك مصدر واحد يدعو إلى القول بأن الخليفة الأول والفراروق كانا يفكران بالخلافة بعد رسول الله ، أو أن أحداً منهما فطن إلى أنه سيكون الخليفة بعد محمد بن عبد الله ، والمصادر التي بين أيدينا تؤكد أن الفراروق نفسه فوجئ بوفاة رسول الله مفاجئة أذهلته وذهبت بحامه ، ولا منس يتجاهل هذا المصدر المتواتر في مختلف كتب التاريخ تجاهلا ليس هناك ما يبرره في حال من الأحوال . .

ولا يبخل لا منس على السيدة عائشة بالتقدير والإعجاب ، فهو يصدق عليها كل صفات العبقرية والذكاء والبراعة والنبوغ السياسي ، ونحن وان كنا ننكر المؤامرة - وهي من الخيال ما في ذلك شك - فلا ننكر قيام حزب حكومي في خلافة الصديق ، كان أنصاره المهاجرون من غير بني هاشم ، وكان من أنصاره الأنصار أيضاً ، وقد أيده الأمويون طيلة السنوات التي تقطعت بين خلافة الصديق حتى استشهاد الفراروق ، فلما انتهى إليهم السلطان في عهد عثمان ابن عفان ظهر حزبهم قويا نشيطا ضخما .

ومن المؤكد أن تأييد الأمويين للحزب الحكومي طيلة هذه السنوات الأولى من نشوء الدولة الإسلامية كان لأسباب سياسية لم يكن لهم بد من تكلفتها ومسايرتها، فالأمويون وقد كانوا الحزب السياسي النابه في قريش ومكة قبل الإسلام وقبل ظهور الرسول وحتى فتح مكة ، لم يكونوا من القوة والبأس في الجماعة الإسلامية الناشئة بحيث يستطيع أحدهم فرض سطرانه أو إعلان رأيه، خصوصا وقد تبدلت مقاييس الأمور ، وموازين الشخصية في العهد الجديد، وأصبح النابه البارز من تقبل الإسلام طوعا لا كرها ، ومن أقبل عليه وهو ما يزال طفلا يحبو ، لا من تقبله بعد تبسط شأنه ، واشتداد خطره وبعد فتح مكة بصورة خاصة وكان الأمويون إلا أقلهم من الجماعة التي حاربت الإسلام ، وتولته بالخصومة الشديدة الجامحة ، فكان من الصعب والحالة هذه أن يقوم لهم سلطان ، أو يظهر لهم تأثير سياسي في السنوات الأولى من نشوء الدولة الجديدة ، وفي أيام أبي بكر وعمر بن الخطاب . . .

الفصل الثاني

عائمة أم المؤمنين

الموقف الجاهم :

اعلم أن هناك من يتجافى بحثاً كهذا ، واء-لم أن كثيراً من أصدقائي سوف يشتطون في بحث الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الكتاب ، فأقول لهم ان هذه الحوادث الجاهمة التي أؤرخ لها ، كان لها أثرها القوي البعيد في نشوء الدولة الإسلامية الأولى وانهيارها ، وكان لها أثرها في نشوء الإسلام وتبسط سلطانه ، وكان لها أثرها في تعدد الشيع الإسلامية واختلافها ، وكان لها أثرها في موقفنا الحاضر من هذه الأحداث البعيدة ، وهو موقف يختلف قوة وضعفاً ، وفقاً لميولنا وأغراضنا ، ولسكنها على كل حال أحداث ماخرجت عن كونها قطعة من روحنا ، قطعة من تاريخنا ، لعب فيها أجدادنا الدور الأول وتمزقوا شيعاً في بحثها وتأويلها ، وكان من أثر هذا أن قاتل بعضهم بعضاً ، وأن سقط بعضهم شهيداً بسيف أخيه ، ولولا رحمة الله ، ولولا أن الفاروق مزق الأكامرة والقياصرة قبل ذهابه لمآبه ، لما كان هناك من يمنع إحدى هاتين الإمبراطوريتين من الزحف على الأمصار الإسلامية ، إبان الاختلافات الداخلية يعنون فيها

تمزيقا وتدميرا لعلمهم يسترجعون ما استخلصه أصحاب محمد وأنصار محمد منهم لسنوات
خلت، وقد غاب عنهم أنها أرض قد امتزجت بدماء المؤمنين الأول، وأن هؤلاء
المؤمنين يرقدون اليوم تحت الظلال النسيدي في غوطة دمشق، وعلى ضفاف
النيل. وحول دجلة والفرات.

كانت أم المؤمنين سيدة لا ترى كبير أمر في المغامرة والثورة، توفي رسول
الله عنها وهي ما تزال فتاه تخطر في جلال الوحي والإلهام، جميلة الوجه،
ذكية الفؤاد، آتاه الله حظا من العلم والفهم يؤت مثله الكثيرون من الرجال،
وقد أجمع السلف على أنها من أعلم الناس بالحديث والقرآن، وأن الصحابة وغير
الصحابة كانوا يأخذون العلم عنها ويسألونها في كثير من الأحكام، فلا تعجب بعد
هذا ان رأيها تخوض المعترك السياسي مع الخائضين، ولا تنكر عليها أن
تترجم المعارضة، تعلن رأيها في عثمان وسياسته، وتدعو الناس إلى إصلاحه
فالخروج عليه، فإذا فعلوا ما دعيتهم إليه، وذهب عثمان لما آبه طعنا بالسيوف
وهو في بيته يقرأ قرآنه، وأجمع الناس في المدينة بعد هذا على بيعة علي بن أبي
طالب، تنكرت للبيعة وقامت تدعو للاقتصاص من القتلة، وحزمت أمرها على
المطالبة بدم الخليفة المظلوم، وراحت تقود جيوشا تحارب فيه الإمام القائم، فلا
تنتهي المعركة بينها وبينه حتى يتجسد الثرى ثلاثة عشر ألفا من المسلمين.
كانت غزوة بدر، وكانت معركة اليرموك، ثم كانت القادسية، وكل كان
من المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام، تأيد في الأولى سلطان محمد، وذهبت
الثانية بملك القياصرة في سورية؛ وقضت الثالثة على سلطان الأكاسرة في العراق
ولكن مثل هذا العدد من المسلمين لم يسقط في معركة من هذه المعارك الفاصلة.
فإذا أتى المؤرخ المعاصر يبحث هذه الأحداث الأولى، أسقط في يده فلا

سما عاتية

high strength

يدرى ما يقوله في معركة الجمل التي حارب فيها المسلم المسلم ، والعربي العربي ، لا في سبيل الاسلام ولا في سبيل العربية ولكن في سبيل الحكم والخلافة . . .
والواقع أن موقف المؤرخ المعاصر في غاية الدقة والخطورة ، إذا ما أراد تعليقا على هذه الأحداث ورأيا صريحا في أسبابها ومسبباتها، ولكن الاخلاص في البحث والرغبة في التوفيق بين الآراء المتشابهة ، يدعونا إلى القول بأن مثل هذه الأخطاء تقع في كل أمة من الأمم ، وتحصل بين كل جماعة ناشئة من الناس خصوصا إذا كانت الأمة لا تزال في أول نشوءها السياسي ، فليس هناك والحالة هذه كبير أمر في اختلاف على وعائشة حول الحكم والسفطان، وليس هناك عظيم خطر في بحث هذه الأخطاء السياسية ، التي وقعت حتما ، نعود فيها سيرتها الأولى فلا نقع في أمثالها كرة ثانية ، وكل ما أريد أن يذكره القارىء أن عائشة أم المؤمنين ، وقد كان رسول الله محبا لها عطوفا عليها ، فلنذكر هذه الظاهرة في بحثنا ، وحرى بالعربي أن يحب من كان محمد يحبه . . .

الحياة الأولى

تزوج رسول الله عائشة قبل الهجرة بسنتين وهو ما ذهب إليه أبو عبيدة وأما سواه فيقول : بثلاث سنين ، وهي بنت سبع ، ودخل عليها في المدينة وهي في التاسعة أو العاشرة من العمر ، وتزوجها رسول الله باجماع المؤرخين بعد وفاة خديجة بثلاث سنين ، وكان دخوله عليها في شوال ، فكانت تحب أن تدخل النساء من أهلها وأحبها على أزواجهن في هذا الشهر وهي تقول :

— هل كان في نسائه أحظى مني . ؟

والحق أن رسول الله كان يحبها ؛ وكانت لها عليه دالة ؛ وكانت إلى ذلك

فتاة مرحة جمعت بين الجمال والذكاء والحركة الدائمة ، راحت تثير الضجة في البيت وخارج البيت ، فألفت الأحزاب ؛ وأعدت الخطط التي قسمت بيت رسول الله إلى معسكرين ، وترأست حزب الشباب وقوامه حفصة بنت عمر ، وصفية بنت حيي بن أخطب ، وسودة بنت زمعة ، وترأست الثانية أم سلمة ، وقوامه زينب بنت جحش ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان ، وجويرية بنت الحارث وكان الخلاف مستحكما بين الحزبين ما في ذلك شك ، ورسول الله يرعى الجميع ويحفظ حق الجميع ، مع الصبر والتغاضي والحلم ورحابة الصدر . . .
وقد أجمع حزب الشيوخ والعجائز يوما ولم يكن جميعا كذلك ، ولكن الرئيسة أم سلمة كانت تناهز الستين ، واتدبن زينب بنت جحش لا بلاغ احتجاجهن شفاها إلى رسول الله ، وكان في بيت عائشة فذهبت إليه ولما مثلت أمامه قالت :

— ان أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة .

ثم أقبلت على عائشة تسمعها الكلام الشديد القارص ، وعائشة تسمع ولا تحبر جوابا، وهي بين فترة وأخرى تراقب رسول الله لترى أيسمح لها أن تنتصر أو تدافع عن نفسها ، فلما رأت منه ميلا إلى ذلك استطلت على زينب حتى أفحمتها . . .

فقال النبي ! إنها ابنة أبي بكر . . .

* * *

وحدث مرة أن دخل أبو بكر منزل رسول الله فإذا به يسمع صوت عائشة يعلو على صوت النبي فاستشاط غضبا وأقبل عليها يقول :

— يا بنت أم رومان أترفعين صوتك على رسول الله ؟
وهمَّ بها فردده الرسول عنها، فلما خرج جعل الرسول يترضاها ويقول :
— ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك ؟

* * *

وتحدث رسول الله يوما إلى عائشة قائلا :
— إني لأعلم يا عائشة إذا كنت عليَّ غضبي .
فمالت له : بمَ تعرف ذلك ؟
فقال : إذا كنت غني راضيه تقولين حين تحلفين (لا ورب محمد) وإذا
كنت عليَّ غضبي قلت (لا ورب إبراهيم) .
فمالت عائشة : أجل ما أهجر إلا اسمك ..

* * *

سباو

وتقص علينا عائشة أنها خرجت مع رسول الله يوما في بعض أسفاره ، وهي
بعد فتاة مرحة لعوب ، دقيقة الجسم ، شديدة النشاط فقال رسول الله للناس :
— تقدموا .

فتقدموا ، فقال لعائشة :

— تعالي حتى أسابقك ..

فتسابقا ، فسبقته عائشة ، فسكت ولم يتذمر ..

فلما سمعت عائشة وزاد وزنها قليلا ، وكانوا في سفرة أخرى ، سابقها فسابقها

فأخذ يضحك ويقول :

— هذه بتلك ..

* * *

غيرتها من غير محبة

وكانت عائشة تغار من أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، غيرة شديدة ،
فقد كان رسول الله لا يكف عن ذكرها فقالت له يوما :

— هل كانت إلا عجوزاً بذلك الله خيرا منها ؟

فقال لها مغضبا : لا والله ما بدلتى الله خيرا منها ، آمنت بي إذ كفر بي الناس ،
وصدقتني إذ كذبتني الناس ، وواستني بما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها
الولد دون غيرها من النساء ..

ولم يتزوج رسول الله بكراً غير عائشة ، ولم يكن زواجه بها مقصودا في أول
الأمر حتى رغبته فيها خولة بنت حكيم ، وذلك بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ،
ثم وجد رسول الله في زواجه بها مكافئة لاختلاف أبي بكر صديقه وأكبر المخلصين
والذائدين عن دعوته ..

وتوفي رسول الله عنها وهي ابنة عشرين سنة ، وكانت فقيهة راوية للشعر
عامة بالحديث ، ذات حظ من رسول الله وميل إليها ، وكانت لها عليه جرأة

وإدلال ، وانتقلت هذه المرأة والادلال بعده حتى وقفت من سياسة الخليفة الثالث موقف المنتقد ، وحتى حاربت عليا يوم الجمل . .

ولم تحمل عائشة من رسول الله ولدا ، ولو حملت ولداً لتغير وجه التاريخ ، وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة وعمرها أربع وستون سنة ، ودفنت بالبقيع وصلى عليها المسلمون ليلا ، وأمهم أبو هريرة ، ونزل في قبرها خمسة من أهلها ، وذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة المذكورة . .

الفصل الثالث

أسباب الخصومة

بين علي وعائشة رضي الله عنهما

الأسباب الأولى

يذهب بعض المؤرخين إلى أن الأسباب الأساسية للاختلاف الذي وقع بين علي وعائشة رضي الله عنهما ، يعود في أسبابه الأولى إلى ألوان من سوء التفاهم وقعت بينها وبين فاطمة بنت محمد صلوات الله عليهما . . . ذلك أن رسول الله تزوج عائشة ، أو خطبها بعد وفاة أم المؤمنين خديجة ، وأقامها مقامها في البيت وفاطمة بنت خديجة فأصاب فاطمة ما يصيب سواها من البنات حين يتزوج والدهن بعد وفاة أمهن . وكان من أثر هذا أن دب الخلاف الرقيق بين الزوجة الجديدة الجميلة ، والبنت المحببة المفضلة ، وهذا شيء ممزوج في النفوس البشرية لا سبيل إلى تلافيه أو رفعه ، لأن الابنة تكره ميل أبيها لامرأة غريبة هي ضرة لأمها ، ولما كانت الأم ميتة ، فقد ورثت فاطمة عداوة الزوجة الميتة لضرتها الحية ...

واتفق أن رسول الله أحب عائشة ومال إليها ، أكثر من بقية أزواجه ،
فازداد ما عند فاطمة ، وأكرم رسول الله فاطمة إكراماً عظيماً ، أكثر مما
كان الناس يتوقعونه ، وأكثر من إكرام الرجال في ذلك العهد لبناتهم
حتى خرج بها عن حذب الآباء للأولاد ، فقال بمحضر الخاص والعام مرارا
لا مرة واحدة ، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد ، « إنها سيدة نساء العالمين
وإنها عديلة مريم ، وأنها اذا مرت في الموقف نادى مناد من جهة العرش :
يا أهل الموقف غضوا أبصاركم كي تعبر فاطمة بنت محمد .. »

وكم قال : « يؤذيني ما يؤذيها ، ويغضبني ما يغضبها ، وانها بقية مني يريني
ما رايها » فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة العتب عند الزوجة ، حسب زيادة
التعظيم والتبجيل ، والنفوس البشرية تقلق لما هو دون هذا فكيف هذا ..

موقف علي

ثم حصل عند بعلاها ما هو حاصل عندها ، أعنى عليها رضي الله عنه ، فقد كانت
فاطمة مثلاً تحده ليلا عن عائشة ، تعتب عليها ، وتشكو منها ، ويعشاها نساء المدينة
وجيران بيتها فينقلن اليها كلاما يقولن إنهن سمعن من عائشة ، ثم يذهبن الى
بيت عائشة فينقلن اليها كلاما عن فاطمة ، وكما كانت فاطمة تشكو الى بعلاها ،
كانت عائشة تشكو أمرها الى أبيها - أبي بكر - اذ لم تكن تجرؤ أن تنقل هذا
إلى رسول الله وهي تعرف حبه لفاطمة وحده عليها ، فكان ان وقعت الوحشة بين
الرجلين ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده .

ثم كان من أمر القذف ما كان ، ولم يكن على من القاذفين ، ولكنه كان من المشيرين على رسول الله بطلاق عائشة ، وقال له لما استشاره رسول الله :
- ان هي إلا شمع نعلك ..

وقال له أيضا : سل الخادم وخوفها ، وان أقامت على الجحود فاضربها ..
و بلغ عائشة هذا الكلام كله ، وسمعت اضعافه مما جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الحالة ونقل إليها النساء كلاما كثيرا عن علي وفاطمة وكيف أظهرتا الشماتة جهاراً وسراً فتفاقم الأمر وغلظ ..

ثم إن رسول الله رجع إليها بعد نزول القرآن ببراءتها فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد قهر ، ويستظهر بعد أن غلب ، ويبرأ بعد أن أتهم ، من بسط اللسان وقلبات القول ، إظهارا لانتصارها وإعلانا لفشل خصومها ...

و بلغ كل هذا علياً وفاطمة فاشتدت الحال وغلظت ، وطوى كل من الفريقين قلبه على الموجدة لصاحبه .. ثم كان بينها وبين علي في حياة رسول الله أقوال تقتضى تهيج ما في النفوس ، ثم اتفق أن فاطمة ولدت أولاداً كثيرة بنين وبنات ولم تلد عائشة ولداً ، وكان رسول الله يقيم بني فاطمة مقام بنيه ، فكان هذا يشيرها وتمنى من الله لو يعطيها ولداً لرسول الله يقوم منه مقام غير أبنائه ..

ولما ولد لرسول الله إبراهيم من مارية القبطية أظهر علي بن أبي طالب سروره وكان يتعصب لمارية ويقوم بأمرها عند رسول الله ، وكل هذا كان مما يوغر صدر عائشة عليه ويؤكد ما في نفسها منه ...

في أثناء المرض

وبقيت الأمور على ما هي عليه وفي النفوس ما فيها ، حتى مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المرض الذي توفي فيه ، وكانت فاطمة وعلى يريان أن يرضاه في بيتهما ، وكذلك كان أزواجه كلهن ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبة القلبية التي كانت لها دون سواها ، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلمها في بيتهما ، فلا يكون عنده من الانبساط لوجودها ما يكون إذا خلا بنفسه في بيته وبيت من يميل إليه بطبعه ، وعلم أن المريض يحتاج إلى فضل مداراة ونوم ويقظة وانكشاف وخروج ، فكانت نفسه إلى بيته أسكن منها إلى بيت صهره وبنته ، فانه إذا تصور حياءها استحيا هو أيضا منهما ، وكل واحد يحب أن يخلو بنفسه ويحتشم الصهر والبنات ، ففضل بيت عائشة على سواها ، وثقل مرض رسول الله كما هو معلوم ، وكان على يظن أن أحداً لن ينازعه الأمر ، ان نزل برسول الله حادث ، فلما أمر رسول الله أبا بكر أن يصلي بالناس ، وأن يقوم مقامه في الصلاة منهم ، نسب على إلى عائشة أنها أمرت بلالا مولى أبيها أن يأمره - أي أبي بكر - فليصل بالناس ، لأن رسول الله قال فقط « ليصل بهم أحدهم » ولم يعين ، - وهو ما يذهب إليه على - فصلى أبو بكر في الناس ، فكان قيامه مقام رسول الله في الصلاة مما احتج به عمر بن الخطاب في السقيفة أمام الأنصار ، على أن رسول الله « أراد على ديننا فكيف لا نرضاه على دينانا » .

وهذه تهمة يقول على ان عائشة صاحبها ، وأن رسول الله لم يسم أحداً من المسلمين للصلاة بالناس ، وكان على يذكر هذا لأصحابه في خلواته كثيراً ، ويتهم

حفصة زوج رسول الله و بنت عمر بن الخطاب بأنها هي الأخرى كانت علي علم بالأمر ، وأنها وعائشة تبادرتا إلى تعيين أبيهما . . وكان ما كان من بيعة أبي بكر بسبب هذه اللعبة التي لعبتها عائشة . وكانت هذه الحال عند علي أعظم من كل عظيم وهي الطامة الكبرى والمصيبة العظمى فتظلم إلى الله منها . وجرى له في تخلفه عن البيعة ما هو مشهور حتى بايع ، واستظهرت عائشة بولاية أبيها وعظم شأنها ...

وابن الحديد إذ يروي ما قصصناه من قصة الخلاف عن أستاذه أبي يعقوب يوسف بن اسماعيل يقول : انه لما سأل أستاذه عما ورد في كلامه بشأن قيام أبي بكر بالصلاة بالناس أثناء مرض رسول الله قال له : هذا كلام يقوله علي .. وأما الأخبار التي وصلت إلينا فتقول : ان رسول الله عينه ... أي أمر أبا بكر بالصلاة بالمسلمين ...

بعد وفاة فاطمة

ولما ماتت فاطمة جاء نساء رسول الله كلهن إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة فانها أظهرت مرضاء ولزمت بيتها .. ثم بايع علي أباه ، فسرت عائشة بذلك ، وأظهرت من الاستبشار بتمام البيعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم مانقله الناقلون إلى علي ، واستمرت الأمور على هذا مدة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان ، والقلوب تغلي ، وكلما طال الزمان على علي تضاعف وجده وعتبه ، وباح في بما نفسه ، إلى أن قتل عثمان ، وكانت عائشة ممن ألبَّ عليه وحرص ، ولما

سمعت بمقتله أملت أن تكون الخلافة في طلحة وهو نسيبها ، فعدل القوم عنه
إلى علي ، فلما سمعت ذلك صرخت :

— واعثماناه ... قتل عثمان مظلوما ..

وثار ما في نفسها حتى تولد من ذلك يوم الجمل ...

عثمان وعائشة

ولقد أجمع كل من صنف في السير والخبار أن عائشة كانت من أشد الناس
على عثمان إبان ولايته وفي أواخرها حتى أخرجت نوباً من ثياب رسول الله فنصبته
في منزلها وكانت تقول للداخلين إليها :

— هذا نوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبيل وعثمان قد أبلى سنته . .
قالوا وأول من سمى عثمان « نعئلا » عائشة . . والنعئل الكثير شعر اللحية
والجسد . .

وروى للدائني في كتاب الجمل : انه لما قتل عثمان كانت عائشة بمكة وبلغ
قتله إليها وهي بشراف ، فلم تشك أن طلحة صاحب الأمر . وقالت : بعداً
لنعئل ... إيه صاحب الاصبع ... وكانت إصبع طلحة مقطوعة في معركة أحد
لما كان يدافع عن رسول الله . . إيه أبا شبل ... إيه يا ابن عم ... لكأنني أنظر
إلى إصبعه وهو يبائع له حشو الإبل ..

وكان طلحة على ما يظهر ينتظر أن يبائع له الناس . حتى انه بعد مقتل
عثمان أخذ مفاتيح بيت المال وأخذ نجائب كانت لعثمان في داره ، ثم لما فسد أمره
دفعها إلى علي ...

ويقول أبو مخنف الأزدي : ان عائشة لما بلغها قتل عثمان وهي بمكة انقلبت
مسرعة وهي تقول :

- ايه صاحب الاصبع لله أبوك ... أما انهم وجدوا طلحة لها كفوءاً ..

فلما انتهت إلى (شراف) استقبلها عبيد الله بن أبي سلمة فقالت له :

- ما عندك ؟

قال : قتل عثمان .

قالت : ثم ماذا ؟

قال : ثم حارت بهم الأمور إلى خير محار فبايعوا علياً .

فقالت : لوددت أن السماء انطبقت على الأرض ان تم هذا .. ويحك انظر

ماذا تقول ... ؟

قال : هو ما قلت لك يا أم المؤمنين ..

وفي رواية أخرى أنها لما عرفت بمقتل عثمان ومبايعة علي وكانت تنوي النزول

إلى المدينة لمساعدة طلحة كما يظهر ، أمرت برد ركائبها إلى مكة وراحت وهي في

طريقها إليها تخاطب نفسها وتقول : قتلوا ابن عفان مظلوماً ..

فقال لها من كان يسمعها :

- أم أسمعك تقولين أبعده الله... وقد رأيتك من أشد الناس عليه ..

فقالت : كان ذلك .. ولكنني نظرت في أمره فرأيتهم استتابوه حتى اذا تركوه

كالفضة البيضاء أتوه صائماً محرماً في شهر حرام فقتلوه .

الطلب بدم عثمان

في المصادر الموثوقة أن طلحة والزبير بن العوام كتبوا إلى عائشة وهي بمكة :
« ان خذلى الناس عن بيعة على واظهرى الطلب بدم عثمان .. »
وحملوا الكتب مع ابن أختها عبد الله بن الزبير ، فلما قرأت الكتب أظهرت
الطلب بدم عثمان وكانت أم سلمة زوج النبي بمكة في ذلك العام وهي كما هو
معروف زعيمة الحزب المنافس لعائشة والمؤلف من زوجات النبي المعارضات
لعائشة . فلما رأت صنع عائشة قابلتها بنقيض ذلك وأظهرت موالاته على ونصرته .
ويقول أبو مخنف : جاءت عائشة إلى أم سلمة تساءلها الخروج للطلب بدم عثمان
فقالت لها :

- يا بنت أبى أمية ؟ أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله وأنت كبيرة
أمهات المؤمنين وأنت ... وأنت ...
فقالت أم سلمة : لأمر ما قلت هذه المقالة ...

فقالت عائشة : ان عبد الله بن الزبير أخبرنى أن القوم استتابوا عثمان .
فلما تاب قتلوه صائماً في شهر حرام وقد عزمتم على الخروج إلى البصرة ومعى
الزبير وطلحة فاخرجى معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا وبننا ...
فقالت أم سلمة : انك كنت بالأمس تحرضين على عثمان ، وتقولين فيه
أخبث القول ، وانك لتعرفين منزلة على عند رسول الله ، فأى خروج تخرجين
بعد هذا ؟

فقالت عائشة : انما أخرج للاصلاح بين الناس ، وأرجو فيه الأجر
انشاء الله .

فقالت أم سلمة : انت ورأيتك .
فانصرفت عائشة عنها ، وكتبت أم سلمة بما قالت وقيل لها الى على ..

الفصل الرابع

بيعة علي بن أبي طالب

واختلاف المصادر في أخبارها

وصف البيعة

يقول ابن الأثير في وصف البيعة وفي حوادث سنة خمس وثلاثين : أنه لما قتل عثمان أجمع أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير فأتوا علياً فقالوا له :

- انه لابد للناس من امام .

قال : لا حاجة لي بأمركم فمن اخترتم رضيت به .

فقالوا : ما نختار غيرك .

وترددوا إليه مراراً وقالوا له في آخر ذلك :

- انا لا نعلم أحداً أحق به منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من

رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : لا تفعلوا فإني أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً . .

فقالوا : ما نحن بفاعلين حتى نبإيعك . .

قال : ففي المسجد فان بيعتي لا تكون خفية . . . ولا تكون إلا في المسجد . .

وكان في بيته .. وقيل في مكان آخر ، فخرج إلى المسجد وعليه إزار وطاق
وعمامة خز ، ونعلاه في يده متوكئا على قوس ، فبايعه الناس وكان أول من بايعه
من الناس طلحة بن عبيد الله ، وبايعه الزبير بن العوام ، وقال لهما :

— إن أحببنا أن نبايعاني ، وأن أحببنا بايعتكما .

فقالا : بل نبايعك ..

وقالا بعد ذلك : انا فعلنا ذلك خشية على نفوسنا ، وعرفنا أنه لا يبايعنا ،
وجاءوا بسعد بن أبي وقاص - وهو من الشورى - فقال له علي :

- بايع ...

قال : لا .. حتى يبايع الناس .. والله ما عليك مني بأس .

فقال علي : خلوا سبيله .

وجاءوا بابن عمر بن الخطاب فقالوا : بايع .

فقال : لا .. حتى يبايع الناس .

فقال علي : ائني بكفيل .

فقال ابن عمر - وهو عبد الله - لا أرى كفيلًا .

فقال الأشتر لعلی : دعني أضرب عنقه .

فقال علي : دعوه أنا كفيله ... أنك ما علمت لسيء الخلق صغيرا

وكبيرا ...

وبايعته الأنصار إلا نفرا يسيرا ، منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ،
ومسامة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ،
وزيد بن ثابت ، وكانوا من أنصار عثمان .

وهرب النعمان بن بشير إلى الشام ، وأخذ معه أصابع نائلة امرأة عثمان التي

قطعت وهى تدافع عن بعلمها ، وقميص عثمان الذى قتل فيه ، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع على منبر دمشق ، فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظا وجدوا في أمرهم ..

الحارة فى المدينة

وكانت الحالة الداخلية فى المدينة قبيل البيعة ، مضطربة قاقمة ، فقد غلب عليها زعماء الأمصار الذين ناروا على سياسة عثمان وحصلوه حتى قتلوه ، وكان المصريون يريدون عليا ، والكوفيون الزبير ، والبصريون طلحة ؟ وظلت المدينة بعد مقتل عثمان خمسة أيام وأميرها الغافقى بن حرب ، يلتمسون من يجيئهم إلى القيام بالأمر ، فلا يجدونه ، ووجدوا طلحة فى حائط ووجدوا سعدا والزبير قد خرجا من المدينة ، ووجدوا بنى أمية قد هربوا إلا من لم يطق الهرب ، وهرب سعيد والوليد ومروان بن الحكم إلى مكة وتبعهم غيرهم ، فأتى المصريون عليا فباعدهم ، وأتى الكوفيون الزبير فباعدهم ، وأتى البصريون طلحة فباعدهم ، وكانوا مجتمعين على عثمان ، مختلفين فيما يلى الخلافة منهم ، فأرسلوا إلى سعد بن أبى وقاص يطلبونه فقال :

— أنى وابن عمر ابن الخطاب لا حاجة لنا فيها ... أى الخلافة .

فأتوا — أى زعماء الأمصار — ابن عمر ابن الخطاب فلم يجبهم ، فبقوا حيارى ، وقال بعضهم لبعض :

— لئن رجع الناس إلى أمصارهم — وكان ذلك وقت الحج — بغير إمام لم نأمن الاختلاف وفساد الأمة ، فجمعوا أهل المدينة ، فطلبوا منهم أن يبایعوا

وهددوهم إن لم يفعلوا ، أن يقتلوا عليا وطلحة والزبير ، فغشى الناس عليا فقالوا :

— نبايعك فقد ترى منازل بالإسلام ، وما ابتلينا به من بين القرى .

فقال: دعوني والتمسوا غيري.

فخوفوه الفتنة والتفرقة ، حتى أجابهم واعدوا الغد ، وتشاور الناس فيما

بينهم وقالوا :

— ان دخل طلحة والزبير فقد استقامت .

فأرسلوا من جاء بهما إلى المسجد بالقوة ، فبايعا ، واجتمع أهل المدينة على علي ، وكانت المبايعة يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٣٥ للهجرة (١) .

ولما عاد علي إلى بيته بعد الخطبة والمبايعة ، دخل عليه طلحة والزبير في عدد من الصحابة فقالوا :

— يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود ، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في قتل هذا الرجل — أي عثمان بن عفان —

فقال علي : يا إخوتاه أتى لست أجهل ما تعلمون ، ولكن كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، وقد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم مواليتكم ، فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟

قالوا : لا ..

فطلب منهم أن يهدأوا ريثما تستقر الحال ، واشتد على علي قريش وحال بينهم وبين الخروج من المدينة ، وبعد ما هرب بنو أمية عنها ..

(١) ابن الأثير .

ولا تختلف رواية الطبري كثيرا عن رواية ابن الأثير ، فهو يؤكد تردد
على وتخويف الناس له الفتنة والخلاف ، وينتهي الأمر منه بالقبول ، والذهاب
الى المسجد ومبايعة الناس له ، وفيهم طلحة والزبير .

وطلحة هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله ، أحد الشورى ، وكان له في الدفاع
عن رسول الله يوم أحد أثر عظيم ، وشلت بعض أصابعه يومئذ ، حين وقى
رسول الله بيده من سيوف المشركين .

والزبير هو أبو عبد الله الزبير بن العوام ابن خويلد وأمه صفية بنت
عبد المطلب بن هاشم ، عممة رسول الله وأحد الشورى ، وعمن ثبت مع رسول الله
يوم أحد وأبلى بلاء عظيما .

ولقد أجمع المؤرخون على أن طلحة والزبير كانا بمن ألب على عثمان وانتقد
سياسته ، خصوصا طلحة ، فلما بايعا عليا كانا ينتظران منه خيرا كثيرا ، فلا يعمل
عملا بغير مشورتها ورأيها ، يقاسمهما سلطانه ، ويتوزع وإياها أمصار
الخلافة ، فلما وجداه بعد البيعة لا يبالي بهما ولا يسألهما ، أخذ الزبير يقول :
— بايعت عليا بيدي لا بقلبي ..

وكان يدعى تارة أنه أكره ، وأخرى أنه ورى في البيعة تورية ونوى
دخيلة ..

وكان طلحة مثله إنكاراً للبيعة بعد أن بايع ، ومثله رغبة في الخلافة
أو الإمارة (١)

وكانت بيعة علي إذا قيست ببيعة من سبقه من الخلفاء على شيء من الضعف
والاضطراب . فقد بويع أبو بكر عن رضا من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة ،

(١) أنظر خطبة علي في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جزء ١ ص ٧٧ .

وإذا كان على قد تأخر عن البيعة أياماً أو أسابيع . فإنه عاد فبايع ولم يخالف
وأما بيعة عمر فكانت تامة عامة ، وكانت بيعة عثمان وفاقاً لقانون الشورى الذى
سنه عمر بن الخطاب وأمر باقراره . .

وأما بيعة على فقد كانت والمدينة مليئة بالفوضى والقلق ، غلب عليها ثوار
الامصار فكانوا مصدر الأمر والنهى ، وكان أكثر الصحابة خارج المدينة ؛ ولم
يكن بالمدينة منهم سوى عدد قليل ، على رأسهم طلحة والزبير ؛ وتمت بيعة على
بأغلبية الأصوات لا بالاجماع . .

والواقع أن موقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذه الفترة القلقة من
الزمن كان كثير الدقة ، شديد الخطر ، جليل الأثر ، عظيم الخطورة ، فقد
أحس رضى الله عنه بخطوره الموقف ، وتمزق الكلمة ، وظهور الشقاق بين
الجماعات الإسلامية المختلفة ؛ وراح يطلق نظره فى الماضيات من الأعوام ، فإذا به
يجد أن أحداً من الخلفاء السابقين لم يتول الخلافة ، والامصار نائرة والفتنة
قائمة ورجال الامصار يسيطرون فى المدينة ، ويمضون الأمر فيها ، فرغب فى
التريث قليلاً ريثما تهدأ العاصفة ، وينجلي الغبار ، ولكن الاصطبار كان فوق
طاقة زعماء الأحزاب فى الامصار الذين كانوا فى المدينة ، فقد راحوا يبهثون
الأمر فيما بينهم وقال بعضهم لبعض :

— يعضى قتل عثمان فى الآفاق والبلاد ، فيسمعون بقتله ، ولا يسمعون انه بويع
لأحد بعده ، فيثور كل رجل منهم فى ناحية ، فارجعوا إلى على فلا تركوه
حتى يبايع ، فيسير مع قتل عثمان بيعة على ، فيطمئن الناس ويسكنون .
فرجعوا إلى على وجاء الأشر فقال له :

— ابسط يدك أبايك .

فاعتذر على بما ذكره سابقاً .

فقال الأشر : لتمدن يدك نبايحك أو لتعصرن عينك عليها نائلة... فتردد الإمام أيضا ، فأخذ الأشر يخوفه الفتنة ، ويذكر له انه ليس أحد يشبهه ، وأنه أفضل من غيره ، وأن المصلحة الإسلامية العامة تقضى بهذه المبايعة السريعة ، مخافة انتشار مقتل عثمان في الآفاق دون ما بيعة لأحد من المسلمين ، فيثور كل عامل في ولايته ، وتتمزق الامصار ، وتتفرق الجماعة ، فرضى الإمام عندئذ ، ومد يده إلى الاشر فبايعه ومن معه ، وسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به معهم فبايعه ، وفعل الزبير مثل زميله ، وكانت بيعتهما ضرورية في نظر الإمام ، لأنهما شريكاه في الشورى ، وليس من يطمع بالخلافة سواهما ، ولهما بين الثوار شيعة تؤيدهما وتشد ازرها ، وقد وعداها بالعطاء والنوال ان وصلا إلى الخلافة وتمكنا من الملك والسلطان .

وروى الطبري في بيعة طلحة والزبير ، أن الإمام دعاها إلى البيعة فترددا أول الأمر ، فسل الاشر سيفه ، وقال لطلحة .
- لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك .
فبايعه وبايعه الزبير .

وتخلف عن البيعة جمع من الأنصار منهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك وزيد بن ثابت ، والنعمان بن بشير وغيرهم ، وكانوا يميلون إلى عثمان ويتعصبون لبني أمية ، وهرب قوم إلى الشام ولما يبايعوا علياً ، وهم عامة بني أمية ومن معهم .

الفصل الخامس

هاشم وأمية

خصومة نوارثوها من الجاهلية واشعلوها في الإسلام

سياسة علي بعد البيعة :

نحن الآن وفي هذه الفترة من الزمن وقبيل نشوب الخلاف المسلح بين علي وعائشة أمام ثلاثة أحزاب قد استقرت واشتهرت وأصبحت لها أغراضها السياسية ومرامها البعيدة ؛ بحيث يستطيع المؤرخ المعاصر بحثها ومعرفة أغراضها وآمالها، فهذا حزب الهاشميين قد تألق نجمه بعد أفول ؛ بخلافة علي بن أبي طالب ، وهو لاء أنصاره يستعدون للدفاع عنه والدود في سبيله ؛ ولهم غاية معروفة وسياسة مقررة هي تثبيت علي في الخلافة ؛ ومحاربة من يناوئه ويقف في سبيله

وهذا حزب الأمويين وعلي رأسهم معاوية حاكم الشام يعمل لتوطيد مركزه ومركز عائلته باسم الدفاع عن عثمان والاستفادة من اخطاء الحكومة الهاشمية الجديدة . . .

وأما الحزب الثالث فكان أضعف الأحزاب الثلاثة خطرا وشأنا وهو حزب عائشة أم المؤمنين . فهذه السيدة للغامرة تعود إلى المرح السياسي لتلعب دوراً خطيراً ما ندرى لو وفقت فيه ما كان يكون مصير الإسلام والعربية . . . ولسنا

من الذين يقولون بأن سياسة علي بن أبي طالب الداخلية هي التي خلقت هذه الأحزاب وكوتتها ، فالحزب الأموي كان قد تم تكوينه في عهد عثمان ؛ لما استقر معاوية في الشام . وكان حزب عائشة لا بد من ظهوره إذا نجح علي وتولى الخلافة ؛ كما أن الحزب الهاشمي كان سيكون حزب المعارضة لو استقرت الخلافة لطلحة أو للزبير بن العوام وإذا فالسياسة الداخلية التي اتبعها الخليفة الرابع في معالجة الموقف الحزبي قد استعجلت ظهور هذه الأحزاب التي كان لا بد أن تظهر بمظهرها الحقيقي وأغراضها المعروفة المعلومة

كان من سياسة علي بن أبي طالب بعد أن ولي الخلافة عزل عمال عثمان جميعاً ؛ وقد أبي العمل بنصيحة أنصاره من التريث والأناة ريثما تهدأ العاصفة ويستقر الناس ، كما استفتح ولايته باسترداد الاقطاعات التي كان عثمان قد منحها لبعض ذوى قريبه وأنصاره ؛ وردّها إلى بيت المال واتبع في توزيع الأرزاق القواعد التي سنّها عمر بن الخطاب وسار عليها في خلافته .

وكان من المفروض أن يغضب الذين خسروا هذه الاقطاعات ؛ وكان من المقرر أن يشوروا عليه ؛ وأن ينضموا إلى خصومه ؛ وأن يعملوا لحربه وإنكار بيعته . . .

والواقع أننا أمام نقطة ضعف في سياسة أمير المؤمنين ؛ فقد رأينا مثلاً حين دعاه من دعاه من الصحابة إلى اقرار العدل في قتلة عثمان يدعوهم إلى التريث حتى تستقر الأحوال وتهدأ الأمور، ونراه في الوقت نفسه ؛ لا يترث في مغاضبة أصحاب الاقطاعات ؛ بل يقرر ردها إلى بيت المال ؛ كما نراه يرسل عماله إلى الأطراف مكان عمال عثمان ؛ فلا يأخذ بنصيحة عبد الله بن عباس الذي سأله التريث في أمر معاوية حتى يستقر الأمر ؛ وهذه سياسة كان من حق علي

أن يجري عليها « أي سياسة الشدة » لو كان يملك زمام أصحابه ؛ أما وهو عالم بترددهم ؛ واثق من عدم استقرارهم ؛ خصوصا بعض الصحابة منهم ؛ فقد كان من حسن السياسة أن يسير ابن عباس في نصيحته وأن يأخذ بسياسته، آخذاً الناس بالحسنى كما فعل رسول الله قبله ، لما أخذ كفار العرب باللين واللاطف حتى ألان شدتهم وقضى على خصوماتهم ... هذا ما فعله رسول الله مع الكفار والمشركين من خصومه ؛ فلماذا لم يأخذ علي بسياسة رسول الله هذه مع المسلمين من خصومه السياسيين . . . ؟ ؟ .

ولقد حاول علي في أول حكمه إخراج العرب إلى مياهم ؛ وكانوا نزلوا المدينة مع ثوار الأمصار عند الفتنة ؛ وكان كثير منهم لا يزال في المدينة فلما لم يوفق . رجع إلى بيته قلقا ؛ فدخل عليه طلحة والزبير وبعض أصحاب رسول الله فسأله طلحة أن يرسله إلى البصرة فيكون عدة له وقوة ، وقال : الزبير دعني آت الكوفة فأكون على الخيل معك وعلى عدوك ، فقال علي : حتى انظر في ذلك . . ومن المعلوم أن جماعة طلحة كانت من أهل البصرة ؛ وجماعة الزبير كانت في الكوفة، فلو نزل كل منهما في جماعته وأنصاره ، لعظم شأنهما وازداد خطرهما ، وهو ما كان يقلق عليا ويقض مضجعه . . .

موقف علي من معاوية

ويحدثنا ابن عباس أنه نصح عليا بالبقاء على معاوية وعمال عثمان وتركهم وشأنهم حتى يهدأ الأمر ، ويستقر الحال وتأتيه بيعتهم ، فأبى علي ورفض .
وفعل المغيرة بن شعبة مثل ذلك فنصح عليا أولا بما نصحه به عبد الله بن عباس فلما رفض علي قبول رأيه ، عاد المغيرة فتحول إلى رأي علي مدهانة وتقرباً . . .

وقال عبد الله بن عباس وهو يحاور عليا :

« ان معاوية وأصحابه أهل دنيا ، ان أبقيتهم في مناصبهم لا يبالون من ولى هذا الأمر ، وإن تعزلهم يقولون « أخذ هذا الأمر بغير شورى ، وهو قتل صاحبنا ، ويؤلبون عليك ، ولا أمن طلحة والزبير أن ينضما الى خصومك »

فقال علي : والله لا أعطيه إلا السيف (يعنى معاوية)

فقال عبد الله بن عباس : يا أمير المؤمنين أنت رجل شجاع ، لست صاحب رأى فى الحرب أما سمعت رسول الله يقول (الحرب خدعة) .

فقال علي : بلى .

فقال ابن عباس : أما والله ، لئن أطعنى لأصدرنهم بعد ورد ، ولا تركنهم ينظرون فى دبر الأمور لا يعرفون ما كان وجهها فى غير نقصان عليك ولا إثم لك ..

فقال علي : يا ابن عباس لست من هنالك ، ولا من هنات معاوية فى شىء ..
فقال ابن عباس : أطعنى والحق بمالك بينبع ، وأغلق بابك عليك ، فان العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك ، فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء القوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا . . .

فأبى علي أن يعمل برأى ابن عباس وقال له :

- تسير إلى الشام فقد وليتها .

فقال ابن عباس : ما هذا برأى ، معاوية رجل من بنى أمية ، وهو ابن عم عثمان وعامله ، ولست آمن أن يضرب عنق بعثمان ، وأن أولى ما هو صانع أن يحبسنى فيتحكم على لقرابتي منك ، ولكن اكتب الى معاوية فمعه وعده .

(٣ - علي وعائشة)

فقال علي : لا والله لا كان هذا أبداً ...
وكذلك نرى أن علياً لم يأخذ برأي أحد من الخاصين له ، وتكف
رأيه في سياسته الداخلية ، فكان ما كان من حديث الفتن والخلافات المقبلة ..
وكان المغيرة يقول بعد اجتماعه مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب :
— نصحته فلما لم يقبل غشسته ، وخرج فلحق بمكة ...

عمال علي وفلسهم

فلما كانت سنة ست وثلاثين للهجرة فرّق علي عماله على الأمصار ، فبعث
عثمان بن حنيف على البصرة ، وعمار بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن
عباس على اليمن ، وقيس بن سعد الأنصاري على مصر ، وسهل بن حنيف على
الشام ، فأما سهل فإنه لما وصل إلى تبوك رده خيل لأهل الشام ، فلم يصل إلى
دمشق ورجع إلى علي ، وأما قيس بن سعد فوصل إلى مصر ، وانقسم أهلها جماعة
معه وجماعة عليه ، وأما عثمان بن حنيف فلم يردده أحد عن دخول البصرة ، ولم
يجد لابن عامر وهو أميرها رأياً فقد تركه وشأنه لا يعارضه ولا يحاربه ، ولكن
الناس اختلفوا فيها ، اتبعت جماعة خصوم علي ، واتبعت فرقة علياً ، وقالت جماعة
ثالثة : ننتظر ما يصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا .. وأما عمار بن شهاب فلم
يصل إلى الكوفة ، ورده بعض أهلها قائلين : إنهم لا يريدون بأمرهم بديلاً ..
وانطلق عبيد الله بن عباس إلى اليمن فلما عرف أميرها يعلى بن منبه بقدمه
جمع كل ما عنده من مال المسلمين وذهب إلى مكة ..

فلما أنت علياً أخبار عماله ، وعلم أن عامله على الشام لم يستطع دخولها ،
وأن عامله على الكوفة لم يوفق ، وأن عماله الباقين قد اختلف فيهم الناس دعا
طلحة والزبير فقال لهما :

- إن الأمر الذي كنت أحذركم قد وقع ، وأن الذي قد وقع لا يدرك إلا
بقامته ، وأنها فتنة كالنار كلما سمرت ازدادت قوة واستعاراً ..
فقالا له : ائذن لنا نخرج من المدينة .

فقال : سأمسك الأمر ما استمسك فإذا لم أجد بداً فآخر الداء الكى ...
وكتب إلى معاوية وإلى أبي موسى وكان يلي الكوفة منذ أيام عثمان ،
فكتب إليه أبو موسى بطاعة أهلها وبيعتهم ، وبين الكاره منهم للذي كان ،
والراضى ومن بين ذلك .

وأما معاوية فقد أخرج رسول على ثلاثة أشهر ثم أنفذه في كتاب أبيض ،
لا كلام ولا جواب فيه ، فلما فض على الكتاب ولم يجد فيه شيئاً قال للرسول :
- ما وراءك ؟

قال الرسول : ورأى أنى تركت قوما لا يرضون إلا بالقود .

قال على : ممن ؟

قال الرسول : متك .. وتركت ستين ألف شيخ يكون تحت قميص عثمان ،
وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق ..

قال على : أمني يطلبون دم عثمان .. ألسنت موتوراً كترة عثمان ، اللهم انى
أبرأ إليك من دم عثمان .

ولما رأى على موقف معاوية - علم أن خصمه لن يبايعه حتى يحاربه ، فأخذ يتجهز للحرب ، واستأذنه في هذه الأثناء طلحة والزبير في العمرة فأذن لهما ، فلحقا بمكة ، ودعا على محمد بن الحنفية ابنه فدفع إليه اللواء ، وولى عبد الله بن عباس ميمنته ، وعمر بن أبي سامة أو عمره بن سفيان بن عبد الأسد ميسرته ، ودعا نسيباً لأبي عبيدة عامر بن الجراح فولاه مقدمته ، واستخلف على المدينة قثم بن العباس ، ولم يول ممن خرج على عثمان أحداً ، وكتب إلى أمراءه في الأمصار أن يندبوا الناس إلى أهل الشام ...

الخلافة بين هاشم وأمية

والواقع أن الاختلاف بين علي وهو هاشمي ، وعثمان وهو أموي ، وكان لنا رقيقاً لا يتجاوز النقد السياسي المفروض أن يقع بين الذين يشتغلون بالسياسة ، ثم الاختلاف بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان ومعاوية يمثل الحزب الأموي في الإسلام لم يكن إلا صورة مكبرة للخلاف القديم العهد ، البعيد المدى بين الهاشميين والأمويين في العهد الجاهلي وقبل ظهور الإسلام ...

وقد أجمع مؤرخو السلف وكتابهم ومن بحث هذه النواحي الغامضة في تاريخ الإسلام منهم على أن هذه عداوة قديمة النسب بين عبد شمس وبين بني هاشم ، وكان حرب بن أمية نافر عبد المطلب بن هاشم ، وكان أبو سفيان والد معاوية زعيم قريش أول ظهور الإسلام ، وقد حارب رسول الله وقاتله في غير مكان واحد ، ثم إن رسول الله زوج علياً ابنته المحببة فاطمة ، وزوج عثمان ابنته الأخرى ، وكان اختصاص رسول الله لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى ، ثم للثانية التي تزوجها عثمان بعد وفاة الأولى . .

ثم كان اختصاصه أيضاً لعلی وزيادة قربه ، وامتزاجه به واستخلاصه إياه لنفسه أكثر وأعظم من اختصاصه لعثمان ، فتباعد ما بين القلبين ، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختين من معاتبة أو مشاجرة ، أو كلام ينقل عن إحداهما إلى الأخرى فيتسكدر قلبها على أختها ، ويكون هذا سبباً للعتب بين البعلين ، كما هو معروف مشهور واقع في كل العصور ، وقد وقع بين زوجات رسول الله الكثير من هذا ، وقيل ما قطع بين الأخوين كالزوجتين ، ثم اتفق أن علياً قتل جماعة كثيرة من بني عبد شمس في الغزوات والحروب ، فتأكد الشنآن بينه وبين الأمويين وجماعة كبيرة من أهل مكة ، وإذا استوحش الإنسان من صاحبه استوحش صاحبه منه ، ثم مات رسول الله فصبأ إلى علي جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم ، ولا حضر في دار فاطمة ، مع من حضر من المتخلفين عن البيعة وكانت في نفس علي أمور على الخليفة لم يتمكن من إظهارها في أيام أبي بكر وعمر لقوة عمر وشدته وانبساط يده ولسانه .

فلما قتل عمر وجعل الأمر شورى ، واختار جماعة الشورى عثمان ، أو عدل عبد الرحمن بن عوف بالخليفة عن علي إلى عثمان ، لم يملك علي نفسه ، فأظهر ما كان كامناً ، وأبدى ما كان مستورا ، ولم يزل الأمر يتزايد حتى زاد ما بينهما وتفاقم ، ومع ذلك فلم يكن علي لينكر من سياسة عثمان إلا منكرآ ، ولا ينهأه إلا عما تقتضى الشريعة نهيه عنه ، وكان عثمان مستضعفا في نفسه ، رخوآ قليل الحزم ، وسلم أمره إلى مروان بصرفه كيف شاء ، فلما انتقض علي عثمان أمره استصرخ عليا ولاذ به ، وكان الأمر قد فسد فسادا لا يرجى صلاحه . .

مسألة الشورى

ويذهب قوم من المؤرخين إلى أن الشورى كانت من الأسباب المؤكدة للخلاف ، وأنها وإن كانت لونا رائعا من ألوان الحرية الفكرية ، والحكومة الديمقراطية والنظام البرلماني الحديث إلا أنها جعلت من أعضاء الشورى جماعة يعتقد كل واحد منهم أنه أهل للخلافة خليق بها . . .

أقرّ عمر بن الخطاب الشورى في ستة نفر من أصحاب رسول الله على أن يختاروا واحدا منهم للخلافة ، فاختاروا عثمان كما هو معلوم ومشهور ، ولكن بقي في نفس كل واحد منهم أنه قد رشح للخلافة ، وأنه أهل للملك والسلطان ، فلم يزل ذلك في نفوسهم وأذهانهم مصورا بين أعينهم ، مرتسا في خيالاتهم نازعة إليه نفوسهم ، طامحة نحوه عيونهم ، حتى كان من الشقاق بين علي وعثمان ما كان ، وحتى أفضى الأمر إلى قتل عثمان ، ولولا ما كان يسمعه ثوار الأمصار من انتقاد جماعة الشورى لسياسة عثمان ، لما وقعت الفاجعة على النحو الذي كان ، وكان طلحة من أشد الناقمين على السياسة الأموية التي اتبعها عثمان ، وكان لا يشك أن الأمر له من بعده لسابقته وكونه ابن عم أبي بكر ، ولأبي بكر مكاتته ، وكان طلحة إلى هذا سمحا جوادا ، فأغرى الناس بالخليفة القائم ، واشتد عليه في نقده وأيده الزبير ، وكان أيضا يرجو الأمر لنفسه ، ولم يكن رجاؤهما هذا الأمر دون رجاء علي ، بل كان رجاؤهما أقوى ، لأن عليا اتفق له من بغض قريش وانحرافها ما لم يتفق لأحد ، وكانت قريش تحب طلحة والزبير ، لأن الأسباب الموجبة لبغضهم له لم تكن موجودة فيهما ، وكانا يتألفان قريشا في أواخر أيام عثمان

ويعدانهم بالعطاء والافضال ، وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوة والفعل لأن عمر نص عليهما وارتضاهما للخلافة ، وعمر بن الخطاب متبع القول ، مرضى الفعال موفق مؤيد مطاع نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته . .

فاما قتل عثمان أراد طلحة الخليفة وحرص عليها ، ولولا الأشر وقوم من شجعان العرب جعلوها في علي لم تصل إليه أبداً ، فلما فانت الخلافة طلحة والزبير فتقا ذلك الفتق العظيم علي علي ، وأخرجوا أم المؤمنين عائشة الى العراق . وكان من حرب الجمل ما هو معروف وما سيأتي ذكره في حينه . ثم كانت حرب الجمل مقدمة وتمهيداً لحرب صفين ، لأن معاوية لم يكن ليفعل ما فعل لولا طمعه بما جرى في البصرة . ثم أوهم أهل الشام أن علياً أخطأ بمحاربة أم المؤمنين ومحاربة المسلمين وأنه السبب في قتل طلحة والزبير . ولذلك كان الفساد المتولد عن صفين فرعاً للفساد الذي تولد يوم الجمل ...

سياسة عمر في الخلافة

وهنا تجب الإشارة إلى أمر خطير ، يجب أن يصار إلى بحثه ، والإشارة إلى خطورته قبل الأخذ بغيره ، وهو أن الإسلام دين ديموقراطي ، يصار فيه الى اختيار الخليفة من بين أفضل المسلمين ، وهذا ما فهمه أبو بكر من الإسلام وهذا ما فهمه عمر بن الخطاب ، فلما توفي رسول الله واختلف المسلمون فيما بينهم حول اختيار الخليفة أسرع عمر بن الخطاب في (سقيفة بني ساعدة) الى أبي بكر

فبايعه على أنه أفضل المسلمين بعد رسول الله ، وبايعه الناس من بعده ، ولم
يخل الأمر من وجود بعض الساخطين على هذا الاختيار ، ولكن سيرة أبي بكر
أرضت عنه الجميع ، وأبدت ما كان ينتظره الجميع من مثله فضلا وإخلاصا وأمانة
وخدمة عامة .

فلما أحس أبو بكر أنه لما به ، أخذ يدرس الموقف الانتخابي مع المهاجرين ،
سأل عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة وغيرهم ، فوجد أحداً
منهم لا ينكر على عمر إخلاصه ومقدرته ، ولكنهم ينكرون عليه شدة ، وقد
غاب عنهم أن الإسلام كان في أول نشأته ، وأن الشدة ضرورة ملحة في مثل هذا
العهد ، والفتوح في أولها ، فلم يكن من حق أبي بكر وليس هناك من استقرار
سياسي في الدولة الإسلامية أن يخلق قضية اختيار الخليفة من بعده ، ليصار إلى
الاختلاف حولها من جديد ، والمسلمون يقفون أمام عدوهم شرقاً وغرباً ومن
الحق أن يكونوا في مثل هذا الموقف يبدأ واحدة وصفاً واحداً ...
وعندئذ وأمام هذه الاعتبارات قرر أبو بكر أن يختار الخليفة المقبل
للمسلمين واختاره طبعاً من المهاجرين ، واختاره من هؤلاء المهاجرين الذين
كانوا أقرب الناس إلى رسول الله .

فلمّا طعن عمر بن الخطاب ، وسقط جريحاً على الأرض ، كان أول همه
تسوية مشكلة الخلافة على الوجه الأصح والأحسن ، فأدار وجهه في الصحابة من
بعده ، فوجد لكل منهم مطامحه وأغراضه وسياسته الخاصة في تسير الأمور ،
فعلى مثلاً كان يعتقد بحقه وحق أهله من بعده في الأمر ، وهو ما كان ينكره
عمر ولا يؤمن به ولولا هذا الإيمان في علي لولاه عمر الخلافة من بعده ما في ذلك
شك ولا ريب .

ثم إنه لما طعن عمر كانت الدولة الإسلامية في حال غير حالها الأول ، فقد فتحت الفتوح ، واستقر العرب في البلاد المفتوحة ، وأنشأوا فيها الأمصار ، وعظمت شوكتهم ، واشتد أمرهم ، فلم يكن يخشى عليهم الخذلان والاختلاف ، وارتداد عدوهم عليهم ، كما كان الحال عهد أبي بكر ، ولذلك لم يأخذ عمر برأى أبي بكر في اختيار خلفه ، فقد وجد في هذا الكثير من المسؤولية والاستبداد في الرأي في وقت ليس فيه من داع ولا خطر على الدولة كما قدمنا .

وعندئذ ابتكر عمر طريقته الديمقراطية ، وهي وسط بين فرض الرأي ، وترك الاختيار لسواه ، وفرض رأيه في تسميته جماعة من الصحابة أولى القدم والسابقة في الإسلام ، واختارهم جميعاً من المهاجرين ، وترك لهم أن يختاروا واحداً منهم يرضونه للخلافة في أيام ثلاثة .

وأما القول بأن عمر بن الخطاب قد أخطأ في اختيار الشورى ، لأنه نفخ فيهم - أي رجال الشورى - روح الرياسة وحب الخلافة ، فقول مردود ، لأنه من المفروض في المجالس البرلمانية التي تضم مئات الأعضاء ، والتي تكلف اختيار رئيس الجمهورية ، أن يكون لكل فرد من أفرادها الحق في ترشيح نفسه إذا كانت هناك جماعة تناصره ، وتؤيده ، ولكن هذا الحق لا يعطيه امتيازاً خاصاً ، ولا مقاماً مرموقاً ، وإنما هذا يكون وفاقاً لاستعداده وشخصيته . وعمر لما اختار الشورى وفرضها اختار رجالها من قبائل العرب ؛ فعثمان كان يمثل أمية ، وعلى كان يمثل بني هاشم ؛ ومثل هذا يقال في بقية رجال الشورى الذين كانوا يشكلون البطون المختلفة في قریش .

ولا يجب إلى ذلك أن ننسى شيئاً آخر ، وهو أن عمر بن الخطاب رضى
الله عنه ، كان صريعاً مسجى على الأرض ، ينزف دمه منه ، ويتزايد ضعفه
ساعة بعد ساعة ، وهو يقرر السياسة الانتخابية للحكومة القائمة بعده ، فمن
الحق والحالة هذه أن نقدر موقفه هذا ، وأن نقرر أن اختيار الشورى كان
خطوة واسعة أولى في سبيل بناء دستور عربي متين ... لو بلغ مداه لكان من
أرقى النظم الحكومية في العالم .

الفصل السّادس

عائشة زعيمة الحزب المعارض

موقف عائشة :

ليس انا أن نحاول التهوين من موقف عائشة أم المؤمنين من هذه الأحداث السياسية الجامعة ، فقد كانت صاحبة الفكر المدبر ، والرأى النافذ ، وإذا اجتمع أهل البصرة حولها ، وخاضوا معركة الجمل في سبيلها ، فلتأثيرها عليهم ، ولسحرها في نفوسهم ولهيبتها ومقامها في مجالس الخطابة والنقاش والخصومة . . ولولاها ، ولولا وجودها في الجيش ، إلى جانب طلحة والزبير ، لما اجتمع حول الاثنين جمع ، ولا انتظم لهما شمل ، ولا استطاعا الثبات في مناوشة صغيرة فكيف بمعركة كبيرة . . .

وإذا كان طلحة قد وفق لاستجلاب جماعة من قريش ، فقد كان تأييد هذه الجماعة له معنوياً بحتاً ، وأما إذا جد الجد ، وتكشفت أسباب الخصومة ، ولجأ خصومه للحرب والسيف ، فما كان طلحة بمستطيع الاعتماد على عدد منهم ، ولا كان هؤلاء بمؤيديه ضد على ، ولا كانوا ممن سيحملون السلاح في سبيله وسبيل الزبير ، لولا تأييد عائشة لهما ، وذهابها على رأس الجماعة إلى البصرة ، ولعائشة مركزها المرموق ، واسمها العريض الكبير ..

ولم يكن في الإمكان واسكل من طلحة والزبير أغراضه ومطامعه أن يستكينا إلى الهدوء والسكينة والقبول للأمر الواقع ، فقد بايعا مكرهين ما في ذلك شك ، وأقول مكرهين لأن كلا منهما كان يطلب الخلافة لنفسه ، ولكنهما لما رأيا تأزم الموقف ، واختلاف الناس ، ووجدا أنصارها أقلية أمام أنصار علي سكتا على مضض ، وأظهر الزهادة في الولاية أول الأمر حتى لا يتهما بمقتل عثمان ؛ وحتى لا يؤخذ عليهما تطلبهما الخلافة أنهما ما أنارا الناس وأهل الأمصار وسكان المدينة على عثمان وسياسة عثمان إلا ليصلا إلى مركزه ، ويجلسا على كرسي الخلافة مكانه ..

والظاهر أنه لما فات الرجلين أمر الولاية العظمى ، طمعا في أن يوليهما على بعض الأعمال الكبيرة ، ليكون لكل منهما من الرجال والأموال والفلاح مثل ما كان لمعاوية ، فمشيا إليه يقولان :

— هل تدري يا علي علام بايعناك ؟

فقال : نعم على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعنا عليه أبا بكر وعمر وعثمان .
فقالا : لا .. ولكن بايعناك على أنا شريكك في هذا الأمر .
فقال علي : لا ، ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز .

وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق ، وطلحة في اليمن ، فلما استبان لهما أن عليا غير موليهما شيئا ، أظهرتا التذمر والانتقاد ، فتكلم الزبير في ملا من الناس فقال :

— هذا جزاؤنا من علي ، قمنا له في أمر عثمان ، حتى أثبتنا عليه الذنب ، وسببنا

له القتل وهو جالس في بيته وكفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا
غيرنا .

وقال طلحة : ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا ،
و بايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ، ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا
ما رجونا .

و بلغ على قولهما فدعا عبد الله بن عباس فقال له :

— قد بلغك قول هذين الرجلين ؟

قال : نعم بلغني قولهما .

قال على : فما ترى ؟

قال : أرى أنهما أحبا الولاية ، فول البصرة الزبير ، وول طلحة الكوفة

فانهما ليس بأقرب إليك من الوليد ، وابن عامر من عثمان .

فضحك على وقال : ويحك إن العراقيين بها الرجال والأموال ؛ ومتى تملك
رقاب الناس يستميلان السفية بالطمع ؛ ويضربان الضعيف بالبلاء ، ويقويان
على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملاً أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية
على الشام ؛ ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأى^(١) .
ثم أتى طلحة والزبير إلى على فقالا :

— يا أمير المؤمنين أذن لنا في العمرة ؛ فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك ،

وإن تسر نتبعك .

فنظر إليهما وقال :

(١) ينسب ابن أبي الحديد هذا الرأي إلى ابن عباس ، ويقول إن الذي نصح علياً بتوليتهما

هو المغيرة . . .

— ما العمرة تريدان . . وإنما تريدان العُدرة ، ونكث البيعة ، امضيا
إلى شأنكما . . فمضيا . . .

وفي رواية أنه لما خرج الرجلان من المدينة إلى مكة ، لم يلقيا أحداً ، إلا
وقالا له : ليس لعلى في أعناقنا بيعة وإنما بايعناه مكرهين .

والحقيقة التي لا شك فيها أن طلحة والزبير وان أثارا الناس على عثمان إلا
أنهما لم يكونا يطلبان قتله ولا دعيا إلى هذا ، ولا قالاه ، وإنما كانا يريدان
اعتزال عثمان الخليفة ، وإبعاد بنى أمية عن وظائف الدولة وعودة الشورى ثانية
لعل أحدهما يظفر بالخلافة التي كان يطمع بها ، ولكن عثمان رفض الاعتزال ،
وقتل كما قدمنا ، وثار الناس بعد قتله ، وندم القاتلون والثأرون على ما كان ،
لأنهم وجدوا أنفسهم في مأزق لا يدرون كيف تكون النجاة منه ، وأسقط في
الوقت نفسه في أيدي طلحة والزبير لما شاهدا نعمة الناس في المدينة عليهما ،
وكيف راح الكثيرون يتهمونهما بمماتة الثوار والثورة فراحا عندئذ يحاولان
تبرئة نفسيهما مما نسب إليهما فقالا :

— كنا نريد الإصلاح ولم نطلب ما وقع ونحن لا غرض لنا ولا مطمع
في الخلافة . .

وكذلك جرت السفينة على غير ما يشتهيان ، واهتم الناس بعد الفاجعة بمبايعة
أحد رجال الشورى وكان على أقرب الجميع ، وأنصاره وأعوانه أقوى الأنصار
والأعوان ، فبويع ، وبايعه طلحة والزبير على مضمض والقول بأنهما بايعا كرها
أوقسرا فيها بعض التورية ، لأنه لو كان عندهما من القوة ما يمكنهما من الوصول
إلى الخلافة أو رفض البيعة ما تأخرا عن رفض البيعة وإعلان الثورة

الصحابة في الأمصار

أما هذا التأثير الذي كان لبعض الصحابة في مختلف الأمصار ، والذي كان له شأنه في الفتنة والثورات الداخلية التي وقعت ، فإن مرده وسببه أن الفاروق عمر بن الخطاب كان قد حجز على أعلام قريش من المهاجرين الانسياح في البلدان والأمصار التي فتحت حديثاً إلا بإذن وأجل ، فشكوه وبلغته الشكوى فلم يتكاف بتبديل أمره ، وأعلن ذلك للناس وقال : « إني قائم على حلاقيم من يريدون أن يهواوا في النار » أو شيئاً من هذا ، وكانت حجة الفاروق أن للمهاجرين الأولين مزية الدين ومزية الدفاع عن رسول الله ، ومزايا أخرى تتعلق بمثل هذا وتساوقه لم يكن عند المسلمين الجدد مثلها أو شيئاً منها ، فإن غادروا المدينة ونزلوا الأمصار الجديدة فلا بد أن يتصل بهم المسلمون الجدد ممن لم يكن لهم سابقة ولا صحبة مع الرسول ؛ يعظمون شأنهم ويعززون أمرهم ، ويكونون لهم تبع . . فإذا استقر هؤلاء المهاجرون الأولون وغيرهم من الصحابة بهذا المصير ، وشاهدوا هذه المكانة التي لهم عند الناس ، فقد تحذتهم أنفسهم بالاستقلال ، وقد يفكرون بالعودة إلى العصبية الجاهلية القديمة ، من العمل لتزعيم قبيلهم على غيرها ، مما يكون مضرراً بالوحدة العربية الإسلامية . . .

فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به الفاروق فانساحوا في الأرض فلما رأوها ؛ روا شيئاً جديداً وحياتة لا عهد لهم بها فأعجبتهم وفضلوا السكنى فيها ؛ وانقطع إليهم - كما قال الفاروق - أو شاب الناس ومن لم يكن لهم سابقة ولا مزية في الاسلام ؛ وصاروا إليهم وقالوا :

— هؤلاء رجال الملك وأرباب الدين ، وقد يملكون غداً ؛ فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقارب والانقطاع إليهم .
فكان هذا أول وهن في الإسلام ، وأول تمزيق لعروة الدولة القاعة ، ولم تَمْضِ سنة على إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالاً في الأمصار ؛ وانقطع إليهم الناس وبانقطاع الناس إليهم أخذوا في العودة إلى حديث الجاهلية وتأليف الأحزاب ، والتفاضل بالعصبية وهو ما قضى عليه الإسلام وحرمه الرسول المعظم . . .

والواقع أن قريشاً كانت وفاقاً للقاعدة المتبعة في ذلك العهد كاعضاء الأسرة المالكة ، كبارها مرشحون لأن يلبوا الخلافة يوماً ، وغيرهم مرشح لأن يكون أميراً أو حاكماً على مصر من الأمصار ، وليس هناك نظام يعين سابقهم ولا حقهم وهم مع ذلك متباعدون العشائر ، ومحيط المدينة ضيق عن تدبير ما يمكن أن يختلج في النفوس من الشغب على الخليفة ؛ أما محيط الأمصار فكان واسعاً رحباً ، وكان من السهل إحداث الشغب فيه ، ودفع العامة إلى الثورة ، وانتقاد أعمال الولاة على ملامئهم ، لأن العربي القريشي المهاجر في ذلك العهد لم يكن يرى لغيره فضلاً عليه ، ولا كان يستكين لأمر سواه ؛ وقد يفرق فيعتقد أن له في هذا الأمر من الحق مثل ما لأمره ، أو يرى نفسه أولى بالامارة منه . . .
هذه الظاهرة لم يكن بالإمكان أن تظهر عهد الفاروق وفي حياته ، لأن أحداً من قريش وغير قريش لم يكن يجراً على الفتنة أو يفكر بالثورة ، ولكن عثمان كان غير عمر ، وهو ما حمل الناس على استباحة ضعفه ؛ واستثمار حكمه فكان ما كان من بلاء ونكر .

و بنزول كبار قريش في الأمصار ؛ أخذ أو شاب الناس ينقطعون إليهم كما

قدمنا ، فراح أهل البصرة يريدون طلحة ، وانضم أهل الكوفة للزبير ، وكان أهل مصر يؤيدون علياً ، والإمام علي وإن كان لم ينزل مصر ، إلا أنه جاءها من هو أمس الناس به رحماً ، وهو محمد بن أبي بكر ربيبه وزوج أمه بعد وفاة الصديق ، وكان محمد في حجرها فرباه علي ، فكان من أقرب الناس إليه وأصدقهم به . . .

ومن هذا يظهر لنا جلياً واضحاً ، كيف أن هذه الفتن التي حدثت في الأمصار ونورة العامة فيها على ولاية عثمان ، لم تكن إلا نتيجة طبيعية لما سمح به عثمان لاعلام قريش وأنصارهم وأعوانهم من التبسط في الأرض ، وانقطاع العامة إليهم أو لمن هو منهم بسبيل ونسب قريب ، ولا يستبعد أبداً أن تكون نورة الكوفة والبصرة على ولاية عثمان من صنع طلحة والزبير ، ونورة مصر من صنع محمد بن أبي بكر ، ولذلك رأينا أنه لما تم الأمر لعلي وهو مرشح المصريين مثلاً ، نار جماعة طلحة والزبير في الكوفة والبصرة وتردوا في البيعة ينتظرون ما يكون موقف كبارهم وزعمائهم من الخليفة الجديد . . .

ولكن هذه الجماعات كلها كانت بحاجة إلى شخص يربطها ويوحد صفوفها ، ويجمع بين أغراضها المختلفة ونزعاتها المتفرقة ، وكان هذا الشخص أم المؤمنين عائشة ، فكانت زعيمة المعارضة الدامية ، وكانت قائد الجيش المعارض المقبل . . .

الفصل السابع

الفتنة أسبابها ونتائجها

وعمليات المستشرقين والمؤرخين

المؤامرة الأموية :

يذهب مولاي محمد على المؤرخ الهندي المعروف إلى أن الشورى مهدت السبيل إلى تمكين الأمويين من الخلافة بعد أن ظلوا على عهد رسول الله وعهد أبي بكر وعمر في نجوة عن السلطان إلا ما كان من بعض الأمراء والقواد في الأمصار وعند الغزو والفتوح ...

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن الأمويين قد لعبوا دوراً عظيماً في الأيام الثلاثة التي تلت وفاة عمر بن الخطاب وبيعة عثمان بن عفان ، وأنهم تمكنوا في هذه الفترة ، ولهم أكبرية في المدينة ، فمن التأثير في بعض رجالات الشورى بحيث نجحوا في انتخاب أموي منهم ، ونسب لهم ، يجلس على عرش الخلافة .
ولكن المصادر الموثوقة ، وما لدينا من الأخبار والحوادث عن الشورى ومارافق الشورى وتعلق بها ، لا تؤيد شيئاً من هذا ، وقصة الشورى إلى ذلك

تسكاد تكون من أوضح القصص في التاريخ الإسلامي ، فكيف تتسرب الريبة إلى المؤرخ المعاصر ، في كون الاختيار لم يكن نزيها إلى أقصى حدود النزاهة ، وليس لديه مصدر واحد ثبت موثوق ، يستطيع الاطمئنان له والتأكد منه ، فيعدل عن رأيه هذا ، ويبدل حكماً بحكم ومذهباً بآخر ...

والحق أن الاختيار وقع على عثمان لأنه كان حليماً ليناً ، وكان المسلمون بعد خلافة الفاروق يريدون أن يندفسوا الصعداء بعد أن كانوا في أيام عمر لا يستطيعون العيش على هواهم ، فقد ضيق عمر على قريش أنفاسها ، وفرض عليها تقواه ونزاهته وسلطانه ، فكانت قريش والحالة هذه تريد مثلاً أن تنساح في الأرض وتريد أن تقتنى الدور والمزارع ، وأن تستمتع بهذه الثروة التي كانت تدرها الفتوحات عليها .. وكان عثمان مضرب المثل في حياته وتقواه ، وهو بعد هذا في السبعين من العمر ، فلم لا تقبل عليه قريش وتفوض إليه أمرها ، وهي واثقة أنها لن تبهرم بحكمه ، وإن يكون معها إلا كالبحر الجاري سماحة وحلماً ..

لا هفد ولا ضغينة

كان الأمويون من أشد المنافسين سياسياً لبني هاشم ، ولسنا ننكر هذا بل نؤكدده أيضاً ونعلم عظيم أثره وخطره في تاريخ الإسلام والعربية ، ولسكننا لا نذهب إلى أن الأمويين كانوا يحملون في صدورهم لبني هاشم - كما يذهب بعض المؤرخين - أشد الأحقاد والضغائن ، وأنهم لم يعتنقوا الإسلام - بعد أن حاربوا رسول الله السنوات العديدة - إلا لأسباب شخصية وأغراض تجارية حين رأوا في انتشار الدين الجديد عاملاً مواتياً يرفعهم وينفعهم ولا يضرهم ،

فان الاختلاف في نظرنا كان سياسيا بكل ما في الكلمة من معنى ، ذلك أنه كان للأُمويين منزلتهم المرموقة قبل الاسلام فلما جاء رسول الله بدينه انهارت هذه المنزلة وذهبت مع الريح ، وظهر بنو هاشم وكانوا لا ينهضون لأمية قبل الاسلام في المال والسلطان السياسي ، يحلون محل الأمويين ، ولا أشد على المرء من قيام خصمه السياسي مكانه ، وطبيعة النفوس البشرية لا تقبل هواناً بعد عز ، فلم يكن من المستبعد أن يعمد الأمويون لاعادة أمجادهم السياسية ، وليسكتف بنو هاشم بالجاه الديني مثلاً ، وأما أنهم كانوا يكرهون بنى هاشم ويحقدون عليهم ، فقول فيه مبالغة ، والأحداث التي وقعت ، والمعارك التي دارت بين الطرفين كانت في سبيل الخلافة والملك ، وفي سبيل الملك يقتل الانسان ابنه ونسيبه ، دون أن تكون هناك احقاد سابقة ، وقد عامل العباسيون أبناء عمهم الهاشميين بأشد مما عاملهم به الأمويون ، ولم يكن هناك حقد ولا ضغينة سابقة ، وكانوا قبلاً صفاً واحداً ضد الأمويين ...

والواقع أنه في عهد عثمان الأموي بدأ النزاع الذي استمر طوال العهد الأموي بين الهاشميين والأمويين ، وبدأت أيضا روح التمرد والملل من النظام القائم ، وهي الصفات المتأصلة في القبائل العربية منذ أجيال عديدة ، والتي لم يتمكن الاسلام من القضاء عليها في السنوات الأولى القليلة من ظهوره وإنتشاره كما أخذ يظهر ذلك التنافس القبلي القديم من انتساب كل رجل إلى قبيلته والتعصب لها ، والاشارة بأمجادها ومفاخرها ، مع الافضاء عن أمجاد سواها ، أو تجاهلها وانتقادها ، وهو ما ظهر جلياً واضحاً في شعر الشعراء ، وخطب الخطباء وفي ساحات الوغى وبين المعارك ..

عثمان في خلافة : ---

وكانت السنوات الأولى من خلافة عثمان هادئة ، تمت فيها الفتوح التي بدأها المسلمون عهد الفاروق ، كما أدت غزوات الأتراك فيما وراء النهر إلى استيلاء المسلمين على (بلخ) وفتح (هراة) و (كابول) و (غزنه) وإخضاع كرمان وسجستان في جنوبي فارس ، وسار عثمان على سياسة الفاروق في الأعمار فما كان العرب يستولون على مصر أو قطر إلا وتسير فيه أعمال الإصلاح والعمران ، من تحسين الحالة المالية والزراعية ، وتخفيف الضرائب عن أهلها وإقامة العدل بين الناس ، وحفر الجداول ، وتعميد الطرق ، وغرس الأشجار ، وبناء المدن . . . وأدت غارات الجيش البيزنطي في الشمال إلى توغل جنود العرب في البلاد المسماة الآن بالأناضول حتى سواحل البحر الأسود ، كذلك فتحوا طرابلس ، وبرقة أفريقييا ، واستولوا على جزيرة قبرص في الأبيض المتوسط وحطموا أسطول الروم الكبير الذي جاء إلى مياه الاسكندرية لغزو مصر من جديد .

وفيما كان الاسلام ينتشر وتنفق رايته على ربوع تلك الأمصار كان على بن أبي طالب يصرف جهوده في المدينة لتوجيه نشاط العنصر الناشئ إلى الناحية العلمية ، فشرع مع ابن عمه عبد الله بن العباس في إلقاء محاضرات أسبوعية في المسجد الجامع في الفلسفة والمنطق والحديث والبلاغة والفقہ ؛ بينما تفرغ غيرها إلى إلقاء محاضرات في شؤون أخرى . وهكذا تألفت نواة الحركة العلمية التي ترعرعت وزهت بعد حين في « بغداد » عاصمة العباسيين ، وفي تلك الأثناء طفق الناس يتذمرون من تصرف الخليفة ومن المقربين إليه ، وارتفعت الشكوى من استبداد الحكام واغتصابهم الأموال وقد تسكلم « على » عدة مرات مع الخليفة

في هذا الشأن، ولكن « عثمان » بتحريض مروان أبي الاسـتماع إلى نصائحه وأخيراً جاءت الوفود إلى المدينة تطلب إقامة العدل والإنصاف ، فأعادهم الخليفة إلى أمصارهم بعد أن وعدهم خيراً . ولكنهم ماكادوا يغادرون المدينة حتى عثروا على كتاب بخط « مروان » ، وقد قيل انه بنحتم الخليفة يطلب فيه قتلهم جميعاً فاستشاطوا غضباً وقفوا راجعين للمطالبة بقتله . ويجب أن نذكر هنا أن بعض أفراد الأسرة كانوا قد ضموا أصواتهم إلى المتمردين ، غير أن الخليفة الثالث أبي الاسـتماع إليهم فظنوا أن له ضلعاً في المكيدة ، وحاصروه في بيته ، ويقال إن أقاربه تخلوا عنه وقت الشدة وهربوا إلى الشام ، ولكن علياً وأولاده ومواليه دافعوا عنه دفاعاً مشهوداً بحيث لم يستطع المتآمرون أن ينقلبوا عليهم إلا بعد جهد عظيم . وتقول لنا الرواية العربية إن اثنين منهم تسلقا ، جدار بيته وقتلاه وهو ابن ٨٢ سنة وقيل ٨٦ سنة . وكان ملتجياً ، متوسط الطول ، بارز عضلات الوجه ، وقد كانت تعوزه قوة العزيمة وصلابة الرأي ، غير أنه امتاز بالجود والكرم ، ويعرف عنه أنه أهدى كاتبه مروان بن الحكم في عدة فرص أموالاً من المال الأمر الذي جلب عليه سخط الساميين .

خليفة علي

ولما قتل « عثمان » بويـع « علي » بالإجماع . وقد كان في خلال عهد الخلفاء الثلاثة أحد أركان هيئة الشورى فلم يأل جهداً في مساعدتهم وتزويدهم بالإرشادات القيمة . كذلك ينسب كثير من الأعمال الإدارية العظيمة التي تمت في عهد « عمر » إلى إرشاده ، إذا كان في الواقع يعتمد عليه ويركن إلى نصحه فأنا به عنه مدة سفره إلى الشام . واسكن « علياً » كان دائماً في جميع أطوار حياته

مستقل الرأي . لا يداهن ولا يرأى ، متفرغا الى العلم وإلى تهذيب أولاده .
ويقال إنه حين أفضت إليه الخلافة توجه إلى الجامع ببساطته المعهودة ،
وأخذ يتقبل البيعة من الناس (وهو متكئ على قوسه الطويل) وكان فيما
قال انه : مستعد إلى التنازل عن الخلافة لمن هو أحق بها منه . ويقول مؤرخ
فرنسي مشهور (سيديلو) :

« يخيل للمرء حينما يوبع علي بن أبي طالب أن الكل سيطأطأ هامته أمام
هذه العظمة المتلاثة النقية غير أنه قدر غير ذلك » فلقد أحاط به في بادئ الأمر
عداء بني أمية ؛ ولكنه لم يحتط للدسائس ، وأنى أن يقر عمال « عثمان »
مدفوعا بشرف الغاية التي كانت من أبرز ميزاته . وبرغم النصائح التي أسديت
إليه لمسيرة الظروف فقد اتزع الأملك التي أقطعها « عثمان » لأتباعه من بيت
المال ، وقسم الخراج طبقا للقواعد التي سنها « عمر » جلبت عليه هذه الاجراءات
الحازمة سخط الذين أنثروا في العهد السابق . وقد تنازل بعض العمال عن مناصبهم
دون مقاومة بينما رفض البعض الآخر النزول على أمر الخليفة الجديد ومن
بينهم معاوية بن أبي سفيان عامل الشام الذي كان قد جمع ثروة طائلة ، وأعد
تحت إمرته جيشا لجبا يدين له بالولاء ، وهكذا أعلن معاوية العصيان بعد أن
احتاط للأمر واستعد للمقاومة . »

رأي معتدلي السبعة

ويذهب ابن أبي الحديد إلى أن قريشا كانت تقف من علي بن أبي طالب
موقفا عجبيا ، كانت تكره ولايته ، ولا ترغب في خلافته ، ويقول البعض أن
الفاروق كان يعلم هذه العاطفة في قريش ، وأن هذا هو السبب الذي دعاه

لاختيار الشورى ، ولولا ذلك ، ولولا هذا الاعتبار لما عدل الفاروق بالخلافة عن
على ، ولقدمه على غيره واختاره دون سواه ...

ويشرح بن أبي الحديد رأيه فيقول :

« اعلم أن حال علي عليه السلام في هذا المعنى أشهر من أن يحتاج في الدلالة
عليها إلى الاسهاب والاطناب ، فقد رأيت انتقاض العرب عليه من أقطارها حين
بويع بالخلافة بعد وفاة رسول الله عليه السلام بخمس وعشرين سنة ، وفي
دون هذه المدة تنسى الاحقاد وتموت الثارات ، وتبرد الأكبَاد الحامية ، وتسلب
القلوب الواجدة ، ويعدم قرن من الناس ويوجد قرن ، ولا يبقى من أرباب
تلك الشجناء إلا الأقل فكانت حاله بعد تلك المدة الطويلة مع قريش كأنها حاله
لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة رسول الله من إظهار ما في النفوس ، وهيجان
ما في القلوب ، حتى الاخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا
وقائمه وفتكاته في أسلافهم وآبائهم فعملوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت
عن فعله ، فكيف كانت تكون حاله لو جلس على منبر الخلافة وسيفه يقطر
دما من مهج العرب سيما قريش الذين بهم كان ينبغى لو دعمه خطب أن
يعتمد ؟ ؟ .

إذن كانت تدرس أعلام الأمة ، وتنفي رسوم الشريعة ، وتعود الجاهلية
الجهلاء على حالها ، ويفسد ما صلحه رسول الله في ثلاث وعشرون سنة في شهر
واحد فكان من عناية الله بهذا الدين أن ألهم الصحابة ما فعلوه . . . »

سبأه على

ومن المؤكد أن عليا أحس باضطراب الأموال من حوله ، فحاول تهدئة
الناس أول الأمر في المدينة ، وخطب الناس بهذا المعنى وطلب من كل فرد من

أفراد الرعية أن ينصرف لشأنه ويكف عن الخوض في الفتنة ومقتل الخليفة السابق ، وما يتبع هذا الشأن و يتصل به من اختلاف وتمزق وبلاء ، ودعا الناس فوق هذا إلى أن يتقبلوا نوعا جديدا من الحياة . . . كله اقبال على الآخرة وزهد في الدنيا ، وقيام بحدود الله وطاعته فيما أمر به ، والانتهاز عما نهى ...

ولكن أمير المؤمنين كان يسأل الناس مستحيلا ، ويطلب منهم بما لا طاقة لهم به ، فقد رأى المسلمون الدنيا . واستساغوا ما فيها في نعيم وخيرات ؛ وهم إلى هذا يريدون أن يجمعوا بين جمال الدنيا وروعة الآخرة ، فهم والحالة هذه ليسوا بتاركيها (الدنيا) حتى تركهم ، وهي ليست فاعلة حتى يتركوها ، وهم ليسوا بمتنعين عن الخوض في السياسة والأحزاب حتى يشاء الله ، خصوصا بعد أن عادت العصبية القبلية الجاهلية إلى الظهور ، وأخذت القبائل تعود سيرتها الأولى من المفارقة بالأحساب والانساب ، كما ظهر الخلاف واضحا جليا بين هاشم وأمية ...

وكان مقتل عثمان ذريعة اتخذها الأمويون لتحطيم نفوذ علي و بني هاشم ، فادعوا أنه قتل مظلوما ، وأن عليا مسؤول عن قتله ، لأنه خذله ولم يأخذ بناصره ، ويدلون على ذلك بأن بعض قتلة عثمان ، أو بعض المحرضين على قتل عثمان كالأشتر مثلا موجود في جند علي ، وأن عليا لا يعمل على إقامة الحد عليه ، مما يدل على أنه يناصره و يؤيده .

من الفاتل ؟

وكان على في موقف أقل ما يقال فيه أنه من أخرج المواقف وأشدّها دقة وخطورة ، ذلك أن قتلة عثمان كانوا أكثر من واحد ، وهؤلاء هربوا ، ولم يبق في المدينة إلا من كان ينفخ في بوق الثورة أو يدعو لها ، وهؤلاء لم يكونوا بالقتلة ولا بالمجرمين . .

وقد اختلف المؤرخون إلى هذا في أسماء القتلة ، ولا يبعد أنهم أنكروا ما فعلوا ذلك العهد ، وما داموا ينتمون إلى بطون وقبائل فلا شك أن هذه كانت تؤيدهم وتناصرهم وتدافع عنهم ، فلو عرف على القتلة ، وتمكن منهم وأراد إقامة الحد عليهم ، لاقتضى ذلك إثارة خلاف داخلي جديد ، يذهب فيه مئات من المسامين ...

ولذلك رأينا عليا يطلب من الصحابة الذين جاءوا بعد البيعة يطلبون منه إقامة الحدود أن يترشوا في الأمر ، ريثما تستقر الأحوال وتهدأ الأمور ... هذا ما كان عليه الموقف السياسي في المدينة ... جاءها جماعة من الكوفة والبصرة ومصر ، فحاصروا خليفة المسامين القائم في عاصمته وقتلوه ، ووقف منهم أثناء الحصار أهل المدينة موقف المؤيد المعوان والمتفرج الذي لا يبالي ، والخانع الذي لا يهمه من الأمر شيء . . فلما وفق أهل الأمصار إلى غرضهم ، وتمكنوا من المدينة ومن عاصمة الخلافة ، بحيث أصبحوا أصحاب القول الفصل فيها ، بايعوا بالاتفاق مع الأكثرية من سكان المدينة وبعض الصحابة على بن أبي طالب بالخلافة ، فلما أصبح هذا الأمر مقضيا جاء بعض الصحابة وعلى رأسهم

طلحة والزبير ، وقد ثبت أنهم كانوا من المحرضين والمؤلبين على عثمان أثناء خلافته ، ولا نقول إنهما دعوا إلى قتله ، ولكنهما ما في ذلك شك ، انتقدا سياسته وإدارته على ملاء من المسلمين ورجال الأمصار انتقاد مرأ ولما كانا من الشورى ، وكان لهما كلتھما المرموقة ، وكان لكل واحد منهما أعوان وأنصار في البصرة والكوفة ، فان انتقادهما كان له شأنه وخطره ووزنه ولو أراد المسلمون في ذلك الوقت تأليف محكمة لتعيين المسئولين ، لما خرج طلحة والزبير بالبراءة التامة المطلقة ...

جاء هؤلاء إلى أمير المؤمنين يطلبون منه إقامة الحدود على القتلة ، كأن الأمر بيده ، وكأن له السلطان الذي لا يدفع ، على الثوار وزعماء الأمصار ، والواقع غير ذلك فعلى في هذه الفترة الجاهمة كان خليفة لا يستطيع أن يفعل ما يشاء ولا ما يريد . . . وكان سلطانه على جماعته فأرأ هيناً ، ولو أراد العمل بنصيحة طلاب الحدود لكانت ثورة جديدة في المدينة لا يكون مقتل عثمان أمامها إلا يسيراً هيناً ...

وكان أول هم أمير المؤمنين بعد البيعة جمع الأمصار البعيدة على بيعته ، ولا يقوم بهذا العمل إلا عمال يختارهم ويشق بهم ، إذ كان لا يشق بعالم عثمان ، خصوصاً وزعماء الأمصار إنما جاءوا المدينة وثاروا ثورتهم المعروفة لاختلافهم مع عمالهم ، وعدم ثقتهم بهم ...

ولذلك قرر برغم نصيحة أصحابه اقاتلهم وإرسال عمال يؤمن بإخلاصهم مكانهم ، وأرسل عماله كما قدمنا ، فأطاعته الكوفة بعض الطاعة ، وكان هذا

شأن مصر ، وأما البصرة فكانت لا تزال مضطربة الرأي ، أيّد بعضها عليا ،
وأنكره البعض الآخر ، وتر بص القسم الثالث ، وأما الشام فقد أبت ولايته ،
وكان معاوية مستقلا بها وبيده المال والجنود ، وأما اليمن فدخلت في بيعته وقبلت
رسوله ، وعندئذ أخذ أمير المؤمنين يستعد لقتال معاوية في دمشق ، وهو الخصم
الأكبر فان قضى عليه دانت له البلاد من أدناها إلى أقصاها . . .

الفصل الثامن

التأهب إلى البصرة

وصف الموقف في البصرة بعد دخول عائشة وأنصارها

موقف أهل المدينة :

وقف أهل المدينة في هذه الفترة الدقيقة من خلافة علي بن أبي طالب موقفا قلقا مضطربا ، كثرت فيه الأقاويل وغمرت البلد الإشاعات والاختبار ، وكانوا يرغبون في معرفة رأى معاوية بعد ما صارحه هذا بالعداوة ، ورفض البيعة ، ليعلموا أيقانته وأنصاره وهم أهل قبيلة ، أم يتركهم وشأنهم خصوصا بعد ما بلغهم أن ابنه الحسن وغيره قد نصحوه بأن يترك الناس وشأنهم ويجلس في بيته فإن العرب تدور ثم تدور فلا تجد غيره . . فدرسوا إليه زياد ابن حنظلة ، وكان منقطعا إليه فدخل عليه فكلمه فقال له علي :

متى تجمع القلب الذكي وصارمًا وأنفًا حميا تجتنبك الظالم

فخرج إلى القوم وقال : يا قوم الحرب . . .

وأخذ أمير المؤمنين يرتب شؤونه ، وينظم جنوده ، ويشحذ سلاحه ، وكتب إلى أنصاره في الأمصار ليمدوه بالرجال والسلاح ، وبينما هو وجماعته على

التجهز لأهل الشام ، أتاهم الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بأنهم على الخلف ، فأعلم الناس ذلك ، وأن القوم سخطوا إمارته وفارقوا بيعته ، وقال لهم :

— سأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وأكف ان كفوا واقتصر على ما بلغني ...
و بعد أيام بلغه أنهم يريدون البصرة ، فقرر أن يخرج خلفهم وهو يقول :
— ان فعلوا هذا فقد انقطع نظام الساميين ، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه ...

ومعنى هذا أن أمير المؤمنين لم يكن يعارضهم أو يقاتلهم لو ظلوا في مكة مخالفين له ، ولكنهم لما خرجوا إلى الأمصار يدعون أهلها إلى الخلافة فقد أصبحوا أداة للتدمير والثورة وهو ما لم يكن يستطاع السكوت عنه والصبر عليه ...
واشتد الأمر على أهل المدينة لما بلغهم ما وقع في مكة ، فأخذ الكثيرون منهم يتشاقلون عن النهوض مع علي وهم يقولون :

— لا والله لا ندرى كيف نصنع ، فان الأمر قد اشتبه علينا ، ونحن مقيمون حتى يضىء لنا ويسفر . .

ولم يوفق أمير المؤمنين إلى إنهاض عدد يذكر من أهل المدينة ، ولم ينهض معه من أهل بدر غير ستة نفر ، وكان عبد الله بن عمر بن الخطاب من جملة المتشاقلين فلما دعوه للخروج قال :

— إنما أنا من أهل المدينة ، وقد دخلوا في هذا الأمر فدخلت معهم ؛ فان يخرجوا أخرج معهم ، وان يقعوا أقعد . .

الحارة في مكة

وكانت عائشة قد خرجت من المدينة إلى مكة وعثمان محصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة ، فلما علمت بمقتله وبيعة علي اشتد عليها الأمر ، فارتدت الى مكة وهي تقول :

- قتل والله عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه . . .

فلما ذكروا لها ما كانت تقول فيه وفي سياسته . . . قالت :

- انهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي

الأول . . . ولما عادت الى مكة اجتمع إليها الناس على باب المسجد فقالت :

- أيها الناس ان الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة

اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظالماً بالأمس ، ونتموا عليه استعمال من حدثت

سنه ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، وموضع من الحمى حماها لهم ، فتابعهم ونزع

لهم منها فلما لم يجدوا حجة ولا عنراً بادروا بالعدوان ، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا

البلد الحرام ؛ والشهر الحرام ، والله لاصبغ من عثمان خير من طباق الأرض

أمثالهم ، ووالله لو أن النبي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص منه كما يخلص

الذهب من خبثه أو الثوب من درنه . . . »

فلما سمع الناس قولها ، وما أظهرته من المطالبة بدم عثمان قال عبدالله بن

عامر الحضرمي ، وكان عامل عثمان على مكة :

- ها أنا ذا لها أول طالب . . .

وكانت اجابة هذا الرجل لها ، وتأيبده لدعوتها دافعاً لبني أمية على رفع

رؤسهم وتأيد عائشة ، وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة ،
وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير . وجاءهم يعلى بن أمية
عامل عثمان على اليمن بعد أن عزله على بما كان في بيت ما لها من الأموال وقد
قدرها ابن الأثير بستائة بعير وستائة ألف درهم ، وقدم طلحة والزبير من مكة
وكان الاجتماع السياسي الأول فيما بينهم ، ولا ندري من حضره على وجه التحقيق
من غير هؤلاء أي عائشة وطلحة والزبير وعامل مكة وبعض بني أمية وفيه
تقرر السفر إلى البصرة وقالت عائشة تحرضهم :

« أيها الناس ان هذا حدث عظيم وأمر منكر ، فانهضوا فيه إلى اخوانكم
لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم » . .

وكان غرض عائشة أن تنهض للمدينة أولا ، وأن تحارب علياً وأنصاره
بمن يجتمع معها من الأنصار والأعوان . . ولذلك قالت في الاجتماع المذكور
« انهضوا إلى هذه الغوغاء » وكان كلامها هذا جواباً على ما قاله طلحة والزبير
« اننا هربنا من المدينة خوفاً من الغوغاء والأعراب ، واننا فارقنا قوماً حيارى
لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلاً ولا يمنعون أنفسهم . . . »

فظنت عائشة ان الأمر في المدينة هين فقالت : انهضوا إليهم . .

فقال لها أصحابها : يا أم المؤمنين ، دعى المدينة ، فإن من معنا لا يطيقون
الوقوف أمام هذه الغوغاء التي بها ، واشخصى معنا إلى البصرة فانا نأتى بلدآ
مضيفا وسيحتجون علينا في بيعة على بن أبي طالب ، فتنهضينهم كما أنهضت أهل
مكة ، ثم تقعدين فان صلح هذا الأمر كان الذي تريدن ، وإلا احتسبنا ودفعنا
عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضى الله ما أراد » . . .

ومن حديث هذه الجماعة ، وهو حديث طلحة والزبير كما هو ظاهر ، يدرك

القارىء، مكانة عائشة في نفوس الناس ، وتأثيرها في دعوتهم ، وكيف أنها هي التي أنهضت أهل مكة ، وكيف أن جماعتها كانوا يعتمدون عليها في انهاض أهل البصرة ، والدفاع عنهم لما سبق من بيعتهم لعلي بن أبي طالب . .

XX ورغبت عائشة إلى زوجات رسول الله بالخروج معها ، وكانت أم سلمة وحفصة في مكة ، فرفضت أم سلمة وكان هواها مع علي ، ويقال إن حفصة قبلت أولاً ثم رفضت لما كتب لها شقيقها عبد الله بن عمر بن الخطاب ينصحها بالألا تفعل . . ولا يستبعد تفكير حفصة في الخروج مع عائشة أم المؤمنين فقد كانت أبدأ تؤيدها في سياستها ، وكانت من أعضاء حزبها في عهد رسول الله ، وكانت مقربة محببة إليها . . .

وكذلك استقر الرأي على الخروج إلى البصرة وأخذ الناس بالتجهز والاستعداد . . .

وقدم ابن عامر ما عنده من المال والسلاح ، وتقدم يعلى بن أمية يجهز الناس بما جلبه من أموال المسلمين في اليمن ، ونادى المنادى في مكة : « إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة ، فمن كان يريد اعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ، وليس عنده ركب ولا جهاز ، فليأتنا نجهزه ونعطه مركوباً » فسار معهم بين التسمائة والألف من أهل المدينة ومكة ، وانضم إليهم في طريقهم بعض الأعراب فلما أشرفوا على البصرة كانوا في ثلاثة آلاف . .

XX وقد أكدت المصادر التي بين أيدينا أن أم سلمة نصحت عائشة بعدم الذهاب

إلى البصرة ، وجاء في مصدر آخر^(١) أن أم سلمة كتبت إلى علي من مكة :
« أما بعد فإن طلحة والزبير وأشياءهما يريدون أن يخرجوا بعائشة إلى البصرة
ومعهم عبد الله بن عامر ، ويذكرون أن عثمان قتل مظلوماً ، وأنهم يطلبون
بدمه ، والله كافيهم بحوله وقوته ، ولولا ما ناهانا الله عنه من الخروج ، وأمرنا به
من لزوم البيوت ، لم أدع الخروج إليك والنصرة لك ، ولكني باعثة نحوك ابني
عمر فاستوص به يا أمير المؤمنين خيراً » .

الجميل عسكر

ولما عازمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيراً قوياً يحمل هودجها ،
فجاءهم يعلى بن أمية ببعيره المسمى عسكراً ، وكان عظيم الخلق شديداً ، فلما
رأته أعجبها ورضيت به هودجا ومركباً . .

عائشة والأشتر

وكتب الأشتر وهو من أعظم أنصار علي إلى عائشة وهي بمكة :
« أما بعد فانك ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرك أن تقرى
في بيتك ، فان فعلت فهو خير لك ، وإن أبيت إلا أن تلتقي جليبا بك وتبدي للناس
شـميرانك ، قانتلك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك »
فكتبت إليه تقول : أما بعد فانك أول من أثار الفتنة ، ودعا إلى الفرقة ،

(١) هشام بن محمد السكابي في كتاب (الجميل) .

وخالف الجماعة ، وسعى في قتل الخليفة ، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم ، وقد جاءني كتابك وفهمت ما فيه ، وسيكفينيك الله وكل من أصبح مماثلاً لك في ضلالك وغيك ان شاء الله ..

من الأمبر؟

ويقول ابن الأثير « انه لما خرجت عائشة وجماعتها من مكة جاء مروان بن الحكم حتى وقف على طلحة والزبير فقال :

— طى أيكما أسلم بالامرة وأوذن بالصلاة . . . ؟

فقال عبد الله بن الزبير : على أبي . . . (يعني الزبير بن العوام) .

وقال محمد بن طلحة : على أبي . . . (يعني طلحة) .

فأرسلت عائشة إلى مروان وقالت له :

— أتريد أن تفرق أمرنا ، ليصل بالناس ابن أخي عبد الله بالزبير ، وقيل

بل صلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد . . .

فكان معاذ بن عبيد يقول :

— والله لو ظفرنا على علي لاقتتلنا ، ما كان الزبير يترك طلحة والأمر ،

ولا كان طلحة يترك الزبير والأمر . . .

ويقول ابن الأثير : إن أمهات المؤمنين ممن كن بمكة تبعن جيش عائشة إلى

خارج مكة فبكوا على الإسلام . . . فلم ير يوم كان أكثر باكياً وباكياً من

ذلك اليوم . . . وكان يسمى يوم النحيب . . .

عريف راعلي

ولما بلغ القوم (ذات عرق) لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه
فقال لهم :

- أين تذهبون وتتركون نأركم على أعجاز الإبل وراءكم - يعني عائشة وطلحة
والزبير - اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم ..

فقالوا : نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا ...

فخلا سعيد بطلحة والزبير فقال : إن ظفرتما لمن تجعلان الأمر .. أصدقاني؟

قالا : نجعله لأحدنا .. أينما اختاره الناس ...

قال : بل تجعلونه لولد عثمان .. فأنكم خرجتم تطلبون بدمه ..

فقالا : ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأيتام ..

قال : فلا أراني أسعى إلا لإخراجها من بني عبد مناف ..

فرجع ورجع معه عبد الله بن خالد بن أسيد وغيره ...

وقال المغيرة بن شعبة : الرأي ما قال سعيد .. من كان ههنا من ثقيف

فليرجع ..

فرجعوا ...

الاتصال برجال البصرة

ولما اقتربت عائشة من البصرة أرسلت رجلا من أنصارها ليدرس لها أحوال
القوم ، وكتبت إلى رجال منهم الأحنف بن قيس ، وكان طلحة والزبير قد فعلا

مثل ذلك فكتبنا إلى أناس من أهل البصرة يدعونهم إلى الدخول معهم ،
فكتب إليهما كعب بن سور ، وكان قاضي عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة
يقول : « أما بعد فانا غضبنا لعثمان من الأذى باللسان ، فجاء أمر الغير فيه
بالسيف ، فان يك عثمان قتل ظلما فما لكم وله ، وإن قتل مظلوما فغير كما أولى به ،
وان كان أمره أشكل على من شهدته ، فهو على من غاب عنه أشكل .. »
وكتب إليهما الأحنف بن قيس وغيره بمثل ذلك ...

وفد العامل إلى صماعة عائشة

ولما نزلت عائشة خارج البصرة دعا عثمان بن حنيف عاملها عمران بن حصين
وأبا الأسود الدؤلي وقال لهما :

- انطلقا إلى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها ...

فخرجتا فانتھيا إليها بالحفير فأذنت لهما فدخلتا وسالما وقالتا :

- ان أميرنا بعثنا اليك لنسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟

فقالت : والله ما مثلى يغطي لبيته الخبر ، ان الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدثوا فيه ، وآوا المحدثين ، فاستوجبوا لعنة الله
ولعنة رسول الله ، مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا غدر ، فاستحلوا
الدم الحرام وسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام
فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء ، وما الناس فيه وراءنا ، وما ينبغي لهم
من إصلاح هذه القصة ، فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به ، ومنكرتها كم
عنه ...

فخرجوا من عندها فأتيا طلحة وقالوا :

- ما أقدمك ؟

فقال : الطلب بدم عثمان ..

فقال : ألم تبايع عليا ؟

قال : بلى والسيف على عنقي ..

ثم أتيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة ، فرجعا إلى عثمان بن حنيف فنصحه أبو الأسود برد القوم عن البلد ومخاربتهم ..

ويقول ابن أبي الحديد ان عامل البصرة أرسل أبا الأسود الدؤلى ليعلم له علم القوم فذهب الى عائشة فلما مثل بين يديها سألتها عن مسيرها فقالت :

- أطالب بدم عثمان ..

فقال : انه ليس بالبصرة من قتلة عثمان أحد ..

قالت : صدقت .. ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة وجئت أستنهض

أهل البصرة لقتاله ... أنغضب لكم من سوط عمان .. ولا تغضب لعثمان من سيوفكم .

فقال لها : ما أنت من السوط والسيف .. انما أنت زوج رسول الله أمرك

أن تقرى في بيتك ، وتتلّى كتاب ربك ، وليس على النساء قتال . ولا لمن

الطلب بالدماء ، وان عليا لأولى بعثمان منك وامس رحما .. فانهما أبناء

عبدمناف ...

فقالت : لست بمنصرفه حتى أمضى لما قدمت اليه .. أفتظن يا أبا الأسود

أن أحداً يقدم على قتالى ؟

قال : أما والله لنقاتلن قتالا أهونه الشديد ...

ثم قام أبو الأسود فأتى الزبير فقال له :
- يا أبا عبد الله لقد كنت تأخذ بقائم سيفك يوم بويح أبو بكر وتقول
« لا أحد أولى بهذا الأمر من ابن أبي طالب ، وأين هذا المقام من ذلك ؟ » .
فذكر له دم عثمان فقال له أبو الأسود :
- أنت وصاحبك - يعني طلحة - وليتاه فيما بلغنا . .
قال الزبير : فانطلق الى طلحة فاسمع ما يقول . .
فذهب الى طلحة فوجده سادراً مصراً على الحرب ...
فرجع الى عثمان بن حنيف فقال له : انها الحرب فتأهب لها ...

استعداد عامل البصرة

أخذ عثمان بن حنيف عامل على البصرة يدرس الأمر من وجوهه المختلفة
فأشار عليه بعضهم بملسكف عن القوم ، ونصحه آخرون باعتزال الفتنة . .
فأبى وقال :

- بل أمنعهم من دخول البصرة حتى يأتي أمير المؤمنين ...

وخطب الناس في المسجد فقال :

« أيها الناس إنما بايعتم الله . يد الله فوق أيديكم ، فمن تكث فإنما ينكت على
نفسه . ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً . والله لو علم على أن
أحداً أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره ، لبايع من بايعوا
وأطاع من ولوا ، وما به إلى أحد من أصحاب رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى

ولقد شاركهم في محاسنهم ، وما شاركوه في محاسنه ، ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين ، فإن كانا استكرها قبل بيعتهما ، وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولوا « الا وان الهدى ما كانت عليه العامة ، والعامة على بيعة على فما ترون ؟ »

فقال حكيم بن جبلة العبدى ! نرى أن دخلا علينا قاتلناهما وان وقفنا تلقيناكما ، والله ما أبالي أن أقاتلها وحدى ، وإن كنت أحب الحياة ، وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلب إلى بعث ، وانها لدعوة فتيلها شهيد ، وحيها فائز والتعجيل إلى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا ، وهذه ربيعة معك .

ولكن أهل البصرة لم يكونوا جميعاً من رأى عثمان بن حنيف ، فكان بينهم من يرى رأى أم المؤمنين وأصحابها ، ومنهم من يريد الاعتصام ببيعة على ، وظهر الاختلاف في رأيهم ، فذهب قوم منهم إلى معسكر أم المؤمنين يسألونها الدخول إلى البصرة ، ووقفت جماعة مع عامل أمير المؤمنين تحاول ردها وجماعتها عن دخول البلد ، ولو كان في ذلك السيف والحرب .

واجتمع القوم بالمربد ، فقام طلحة في ميمنته ومعه الزبير ، ووقف عثمان في الميسرة ، فخطب طلحة الناس ، فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان رضى الله عنه وفضله ، وما استحل منه ، ودعا إلى الطلب بدمه وحثهم عليه ، وتسكلم الزبير بمثل ذلك ، فقال من بالميمنة : صدقا وبراً ، وقال من بالميسرة : فجرأ وغدراً ، وقالوا الباطل وأمرأ به ، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان

وتخاصب الناس وتخاصبوا بالتراث ، واختلف أمرهم ، فتكلمت عندئذ أم المؤمنين وكانت جهورية الصوت ، قوية العارضة فأنصت لها الناس فقالت :

خطاب عائشة

« كان الناس يتجنون على عثمان رضى الله عنه ، ويزرون على عمه — الله ،
ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم فننظر في ذلك ، فنجده بريئاً
نقياً وفاقياً ، ونجدهم فجرة غدرة كذبة ، وهم يحاولون غير ما يظهرون فلما
قووا كثروه واقتحموا عليه داره ، واستحلوا الدم الحرام والشهر الحرام بلا ترة
ولا عذر ، ألا ان مما ينبغي ولا ينبغي لكم غيره أخذ قتل عثمان رضى الله عنه ،
واقامة كتاب الله ليحكم فيهم » .

فلما سمع الناس كلامها ، اختلف أصحاب عثمان بن حنيف فيما بينهم فرقتين
فرقة قالت : صدقت و برت وجاءت والله بالمعروف ، وقال الآخرون : كذبتم
والله ما نعرف ما تقولون ، فتجاجوا وتحاثوا بالتراب ثانية ، فلما رأت عائشة ذلك
انحدرت ومن معها من أهل الميمنة إلى موضع المربد ، وبقي أصحاب عثمان على
اختلافهم وتحاجزهم وانضم فريق منهم الى أم المؤمنين ورجلها .

وأقبل جارية بن قدامة العبدى فقال :

— يأم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا
الجل الملعون ، أنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وابتحت حرمتك ،
لأنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك ، ان كنت طائعة فارجمى إلى منزلك
وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس .

وخرج شاب من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال :

— أما أنت يازير فحوارى رسول الله ، وأما أنت ياطلحة فوقيت رسول
الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئنا بنساءكما ؟
فقالا : لا .

قال : فما أنا منكما في شيء .

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة - وكان محمد رجلا عبدا ورعا -
فقال له :

- أخبرني عن قتلة عثمان ؟

فقال : نعم ، دم عثمان على ثلاث ، ثلث على صاحبة اليهودج - يعني عائشة -
وثلث على صاحب الجمل الأحمر - يعني أباه طلحة - وثلث على علي بن أبي طالب
فقال الغلام : لا أرني على ضلال ، ولحق بعلي .

في سبيل عثمان

كان من المنتظر بعد أن اشتدت الخصومة على هذا النحو، وتأصلت العداوة
والبغضاء في القلوب المتنافرة ، وثار كل فريق إلى جانب من يؤيده وينصره
ان يغتنم بعضهم هذه الفرصة فيستفز العامة ، ويشير الحرب ، ويحمل السيف ،
وكان البادية بالقتال أصحاب عثمان بن حنيف عامل عليّ على البصرة ، فاقبل
منهم حكيم بن جبلة وهو على الخيل ، فأنشب القتال ؛ واشرع أصحاب عائشة
رماحهم ، فقاتلهم حكيم وجماعته معه ، وأمسك أصحاب عائشة عنهم ، يدافعون
عن أنفسهم حتى انتهى النهار ، وأخذ الفريقان يستعدان للقتال في اليوم التالي ،
فلما كان الغد أصبح عثمان ومعه حكيم وجماعته يستعدون للحرب ، وحكيم
يسب عائشة ؛ فلامه رجل وامرأة فقتلتهما ؛ والتقى الفريقان ، وقتل من أصحاب
عثمان خلق كثير ، وفشت الجراحات في الفريقين ومنادى عائشة ينشدتهم
ويدعوهم إلى السكف فيأبون إلى أن زالت الشمس وعضتهم الحرب ، ومسهم
الشر ، فنادوا أصحاب عائشة إل الصلح . فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم

كتابا على أن يبعثوا رسولا الى المدينة يستخبر أهلها ، فان كان طلحة والزبير
أكرها على بيعة علي . خرج عثمان عنهما ، وأخلى لهما البصرة ، وان لم يكونا
خرج طلحة والزبير عنهم . فخرج كعب بن رسول حتى قدم المدينة يوم جمعة
واجتمع الناس لقدمه فقال :

- يا أهل المدينة انى رسول أهل البصرة إليكم أأكره هذان الرجلان على بيعة
علي أم أتياها طائعين ؟

فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قال :

- اللهم انهما لم يبايعا إلا وهما كارهان .

فواتبه سهل بن حنيف والناس ، حتى خشى عليه أصحاب رسول الله من
القتل ، فقاموا ليمنعوه وفيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ، ومحمد بن
مسلمة وصدقوا قوله ومنعوه ، ورجع رسول أهل البصرة بما وقف عليه بالمدينة
ومن غريب الأمر في هذه الفترة المضطربة أن عيسى وافد أهل البصرة
الى المدينة مقر الإمام وشيعته ؛ فلا يعرف بقدمه أحد منهم ، ولا يعرض له
أحدهم ، ولا يسأله الإمام أن يأتيه ، ولا يفكر عثمان بن حنيف عامل الإمام
على البصرة أن يبعث لإمامه وخليفة المسلمين بتفصيل ما حدث في مصره ووقع
بينه وبين القوم ، كما كان من الحرق منه أن يسمح لحكيم بن جبلة في مقاتلة
القوم ومحاربتهم ، وكان في وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يأتيه أمر الخليفة
وهو ما اغضب الإمام عليه ؛ فأرسل له كتابا يعجزه ويقول له :

« والله ما أكرها على فرقة ، ولقد أكرها على جماعة وفضل ، فان كانا

يريدان الخلع فلا عذر لهما ، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا » .

وجاء كتاب علي ورجع كعب بن رسول قاضي البصرة بما رأى في المدينة ،
فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلح ، فقال عثمان :
— أنا لا أخرج — واحتج بكتاب علي — وقال :
— هذا أمر آخر غير ما كنا فيه .

فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى ، فاقتحموا
دار عثمان بن حنيف وضربوه أربعين سوطاً وتنفوا شعر لحيته ورأسه وشعر
عينيه ، وجسوه ، ثم أمرت عائشة أن يترك ليسير حيث يشاء ، فترك البصرة
وذهب الى المدينة .

وأصبح جماعة عثمان يتأهبون للقتال وعلى رأسهم حكيم بن جبلة وكان
أتباعه ممن لهم شركة في فتنه عثمان ، وعلموا أنهم مقتولون ان قعدوا ، واقتتل
الفر يقان أشد قتال ، ووضع أصحاب عائشة السيف في خصومهم حتى لم ينج من
الذين ألبوا على عثمان إلا حرقوص بن زهير أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه .
وطلب طلحة والزبير بعد المعركة قتلة عثمان ومن ألبوا عليه ، فجاءوا ببيعتهم
يسوقونهم كما تساق الأنعام فقتلوا جميعاً .

وكتب طلحة والزبير إلى أهل الشام بما وقع لهما في البصرة فقالوا :
« إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده
في الشريف والوضيع والكثير والقليل ، حتى يكون الله عز وجل
هو الذي يردنا عن ذلك ، فبايعنا أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم
وتزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا : نأخذ أم المؤمنين رهينة ، ان أمرتهم
بالحق وحشتهم عليه ، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى إذا

لم يبق حجة ولا عذر . استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا الى مضاجعهم فلم يفلت
منهم مخبر إلا حرقوص بن زهير والله تعالى مقيده إن شاء الله ، وإنا نناشدكم
في أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرتنا
وقضينا الذي علينا » .

وكتبوا إلى أهل الكوفة وأهل اليمامة والمدينة بمثله ، وكتبت عائشة إلى
أهل الكوفة مع رسولهم كتاباً طوته وحثتهم على متابعتها^(١) .

(١) كانت الواقعة خمس ليال يقين من ربيع الآخر سنة ٣٦ للهجرة .

الفصل التاسع

على بن أبي طالب في طريق البصرة

والخلاف في الكوفة

في طريق البصرة

كان على بن أبي طالب يحاول السير إلى الشام في أول الأمر ، فلما علم بمسير عائشة وجماعتها إلى البصرة ، قرر اللحاق بهم ، ووضع حد لعدوانهم عليه ، وإثارتهم الأمصار على بيعته . . .

ويلوح لنا أن معاوية ضلعا في هذه المعركة ، فقد كان له بين بطانة أمير المؤمنين عيون وأنصار ، وكان أعلم بحركات على وأغراضه من غيره بما كان يرد إليه من تقارير عيونه وأشياعه . . . فلما أدرك أن عليا سيقصده في جيشه رأى من حسن السياسة أن يشغل عليا عن نفسه ، وأن يرده عما يقصده من التوغل في مصره ، فأرسل يحث طلحة والزبير على الثورة ، ويلوح لهما بالبصرة . ويفريهما بالخلافة ، وقال انه قد أخذ بيعة أهل الشام لازبير ثم لطلحة من بعده ونصحهما بالغلبة على البصرة والكوفة لأن فيهما الأموال والرجال ، فكان من أمرها ما بسطناه في الفصول السابقة . . .

ولست أنكر أن يتكلف معاوية هذه السياسة وهو من يعلم الناس دهاء.
وحزما وبعد نظر خصوصا وأنه لم يفصح عن أغراضه حتى الآن ، وإنما كان
يجاهر دائما وأبدا بأنه إنما يريد الإصلاح والاقتصاص من قتلته عثمان ، عاملا على
أن يشغل خصومه الواحد بالآخر حتى إذا اقتتلوا وضعفوا ظل هو وحده القوى
الشديد . . .

ولما وصل على إلى الكوفة ، كتب إلى أهلها يقول :

« أما بعد فإني قد اخترتكم للنزول بين أظهركم ، لما أعرف من معروفكم
وحبكم لله عز وجل ، ورسوله صلواته عليه ، فمن جاء ونصرني ، فقد أصاب الحق
وقضى الذي عليه » .

موقف أبي موسى

وبعث أمير المؤمنين بعض أصحابه إلى أبي موسى الأشعري أمير الكوفة
ليستنهض الناس إليه ، وليعرفوا له خبر القوم فيها ، وموقفهم منه ومن بيعته
فلما قدم رسول على إلى الكوفة - وهي في رواية محمد بن جعفر ومحمد بن أبي
بكر - وفي غيرها غيرها ، واستنفر القوم ، دخل قوم من أهل الكوفة إلى أبي
موسى يسألونه رأيه فقال :

— أما سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم ، وأما سبيل الدنيا فاشخصوا معها .
فمنع بقوله هذا أهل الكوفة من الخروج . . .

وتؤكد المصادر الموثوقة بين أيدينا على أن أبا موسى خذّل الناس ، ولم

يحسن خدمة أمير المؤمنين على بن أبي طالب . . .

على وولده

وتحدثنا المصادر بما دار بين علي والحسن ابنه في أثناء الطريق فتنقول إن الحسن قال لأبيه يعاتبه :

— لقد أمرتك فعصيتي . .

فقال له علي : وما الذي أمرتني فعصيتك ؟

فقال الحسن : أمرتك يوم أحيط بعمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها . . .

ثم أمرتك يوم قتل الأتباع حتى أتيتك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر . . فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك . . فأبيت علي . . . وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا ، فإن كان الفساد كان على يد غيرك . . فعصيتني في ذلك كله . . .

فقال علي : أي بني أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . . وأما قولك لا تباع حتى يباع أهل الأمصار ، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر . . .

ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني ، فباع الناس أبا بكر فبايعته ، ثم أن أبا بكر انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني ، فباع الناس عمر فبايعته ، ثم ان عمرا انتقل إلى رحمة الله وما أرى أحداً أحق بهذا الأمر مني ، فجعلني سهماً من ستة أسهم ، فباع الناس عثمان فبايعته ، ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه وبايعوني طائعين غير مكرهين ،

فأنا مقاتل من خلفتي بمن أطاعني حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . . .
وأما قولك أن أجلس في بيتي حين خرج طلحة والزبير ، فكيف لي بما قد
لزمني ، أو من تريدني أن أكون ، أتريدني كالضبع التي يحاط بها ويقال ليست
ههنا حتى يحل عرفو باها حتى يخرج . . . وإذا لم أنظر فيما يلزمني من هذا
الأمر ويعينني ، فمن ينظر فيه ، فكف عنك يا بني . . .
وكذلك ترى أن الحسن لم يكن بالرجل المحارب ، وأنه كان يفضل لو يصار
إلى تسوية الأمور بالتي هي أحسن ، وقد رأينا لما آل الأمر إليه وأدرك أن
اتباعه غير مؤيديه حتى النهاية ، يتنازل عن الأمر لمعاوية ، ويترك الناس وشأنهم
ويعود إلى بيته وولده . . .

كلمة لعلی

وخطب على الناس وهو خارج الكوفة - ويقال انه كان بالر بدة - فقال:
« إن الله أعزنا بالإسلام ، ورفعنا به ، وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض
وتباعد ، فجري الناس على ذلك ما شاء الله ، الإسلام دينهم والحق فيهم ،
والكتاب امامهم ، حتى أصيب هذا الرجل - عثمان - بأيدي هؤلاء القوم الذين
نزعهم الشيطان لينزع بين هذه الأمة ، ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت
الأمم قبلهم ، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن ، إلا إنه لا بد مما هو كائن أن
يكون . . . ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة ، شرها فرقة
تفتحني ولا تعمل بعلمي ، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهتدوا بهدي
نبيكم ، واتبعوا سنته ، وأعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن ، فما عرفه القرآن
(٦ - علي وعائشة)

فألزموه ، وما أنكره فردوه ، وارضوا بالله عز وجل ربا وبالإسلام ديننا ،
وبمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا ، وبالقرآن حكما وإماما » .

في الكوفة

و بينما كان أمير المؤمنين يخطب الناس كان الخلاف على أشده بين أبي موسى
الأشعري عامل الكوفة وبين رسولى على إليه ، فإنهما لما سمعا نصيحته لأهل
الكوفة ، بأن الآخرة فى البقاء ، والدنيا فى الخروج ، أغلظا له فى القول وأغلظ
لها وقال :

— والله إن بيعة عثمان لفي عنقى ، وعنق صاحبكما ، فإذا كان لا بد من قتال ،
لا نقاتل أحدا حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا . .
و بينما القوم فى شأنهم بالكوفة قرر على السبر إلى ذى قار ، فقام إليه رفاعه
ابن راهب فسأله :

— يا أمير المؤمنين أى شىء تريد ، وأين تذهب بنا ؟ . . .

فقال — أما الذى تريد وتنوى فأصلاح ، ان قبلوا منا وأجابوا اليه . .

قال — فإن لم يقبلوا . .

قال على : ندعوهم ونعطيهم من الحق ما نرجو أن يرضوا به . .

قال رفاعه : فإن لم يرضوا ؟

قال على : ندعهم ما تركونا . .

قال رفاعه : فإن لم يتركونا ؟

قال على : نمتنع عنهم . .

قال رفاعه - فنعم . .

ومثل هذا الجيش الذي يسأل قائده ويناقشه ، ويعد عليه أنفاسه ، لا يمكن الاعتماد عليه حتى النهاية ، وهو ما حدث فعلا في معركة صفين لما أراد علي متابعة المعركة حتى الظفر ، وأبى أنصاره الا وقف القتال ، وكان من أثر هذا ما كان من الفوضى والتبليبل والفساد . . .

وكان علي لا يسير الا على تعبئة ، وهو قريب من ابنه محمد بن الحنفية ، وعلى ميمنته عبد الله بن عباس ، وعلى ميسرته عمر بن أبي سلمة ، وعلى في القلب علي ناقة حمراء يقود فرسا كيتا . . .

وقدم الى علي في أثناء الطريق عثمان بن حنيف عامله على البصرة ، وقد تنف طلحة والزبير شعر رأسه ، ولحيته وحاجبيه فقال :

— يا أمير المؤمنين بعثني ذا الحية فجتك أمرداً .

فقال علي : أصبت خيراً وأجراً . .

وقال علي للناس :

« أيها الناس ان طلحة والزبير بايعاني ثم نكثنا بيعتي ، وألبتاً عليّ الناس ، ومن العجب ايتارهما لأبي بكر وعمر وخلافهما عليّ ، والله انهما يعلمان اني لست بدونهما ، اللهم فاحلل ما عقدا ، ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما ، وأرهما المساة فيما قد عملا . . . »

مسارة في الكوفة

وعاد في هذه الأثناء محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر رسولا علي إلى الكوفة ، وكان علي في ذي قار ، فأخبراه بالذي جرى في الكوفة ، فبعث علي عبد الله

ابن عباس لينصح أبا موسى ويرده الى الطاعة ، فذهب ابن عباس فاجتمع الى
أبي موسى وجماعة من رؤساء أهل الكوفة ، فقام أبو موسى خطيباً فقال :
— لا تستخفوا بسطان الله ولا تجترئوا ، وان تأخذوا كل من تقدم
عليكم من أهل المدينة في هذا الأمر فتزدوه الى المدينة ، حتى تجتمع الأمة على
امام ترضى به . . . انها فتنة صماء . . . النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان
خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فلا تكونوا
جرثومة من جراثيم العرب ، اعمدوا سيوفكم ، وافصلوا أسننتكم واقطعوا أوتار
قسيمكم حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة » . . .

فعاد ابن عباس فأخبر علياً بما جرى ، فأرسل على عمار بن ياسر وابنه الحسن
الى أبي موسى .

فلما قدم الكوفة كان أول من أتاهما مسروق بن الأجدع فلم عليهما
وأقبل على عمار — وكان عمار ممن ألبَّ على عثمان — فقال له :

— يا أبا اليقظان علام قتلتم أمير المؤمنين .

فقال عمار : على شتم أعراضنا وضرب أبنائنا . . .

قال : فوالله ما عاقبتكم بمثل ما عوقبتهم به ولئن صبرتم لسكان خيراً للصابرين .

موقف أبي موسى وعزله

ثم خرج أبو موسى فلقى الحسن فضمه إليه وقال لعمار :

— يا أبا اليقظان أغدوت فيمن غدا على أمير المؤمنين وأحلت نفسك

مع الفجار ؟

قال : — لم أ فعل ولم يسؤني .

فقطع عليهما الحسن الكلام وقال لأبي موسى :

— يا أبا موسى لم تثبط الناس عنا فوالله ما أردنا إلا الإصلاح وما مثل أمير

المؤمنين يخاف على شيء .

قال أبو موسى : — صدقت بأبي وأمي ولكن المستشار مؤتمن سمعت رسول

الله يقول : ستكون فتنة ، وذكر تمام الحديث .

فغضب عمار وساءه ذلك وقال :

— أيها الناس إنما قال رسول الله ، ذلك له خاصة .

وقام رجل من بني تميم فقال لعمار :

— اسكت أيها العبد وأنت أمس مع الغوغاء وتسافه أميرنا اليوم .

ونار زيد بن صوحان وطبقته فانتصروا لعمار وجعل أبو موسى يكف الناس

ويردعهم عن الفتنة ، ثم انطلق حتى صعد المنبر وأقبل زيد بن صوحان ومعه

كتاب من عائشة إليه خاصة وكتاب منها إلى أهل الكوفة عامة تثبطهم عن نصره

على وتأميرهم بلزوم الأرض وقال :

— أيها الناس انظروا إلى هذه ، أمرت أن تقر في بيتها وأمرنا نحن أن نقسائل

حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت ما أمرنا به

فقام إليه شيبان بن ربعي فقال له :

— وما أنت وذاك أيها العماني الأحمق سرفت أمس بجاولاء فقطعك الله

وتسب أم المؤمنين .

فقام زيد وشال يده المقطوعة وأوماً بيده إلى أبي موسى وهو على المنبر

وقال له :

يا عبد الله بن قيس أنرد الفرات عن أمواجه ، دع عنك مالست تدركه .
ثم قرأ : ألم أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا... الآيتين . ثم نادى سيروا
إلى أمير المؤمنين وصراط سيد المرسلين وانفروا إليه أجمعين .

وقام الحسن بن علي فقال :

- أيها الناس أجيئوا دعوة امامكم وسيروا إلى اخوانكم فإنه سيوجد لهذا
الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة
فاجيئوا دعوتنا وأعينونا على أمرنا أصلحكم الله . «

وقام عبد خير فقال :

- يا أبا موسى أخبرني عن هذين الرجلين ألم يبايعا علياً ؟

فقال أبو موسى : بلى ...

قال : أفا حدث على حدثاً يحل به نقض بيعته ؟

فقال : لا أدري .

قال : لا دريت ولا أتيت ، إذا كنت لا تدري فنحن تاركوك حتى تدري
أخبرني هل تعلم أحداً خارجاً عن هذه الفرق الأربع... على بظهر الكوفة ،
وطلحة والزبير بالبصرة .. ومعاوية بالشام... وفرقة رابعة بالحجاز فعود لا يجبي
بهم فيء ولا يقاتل بهم عدو . . .

فقال أبو موسى : أولئك خير الناس .

فقال عبد خير : اسكت يا أبا موسى فقد غلب عليك غشك .

وقال أبو جعفر الطبري : وأنت الأخبار علياً باختلاف الناس بالكوفة . فقال

للاشتر :

- أنت شفعت في أبي موسى أن أفره على الكوفة ، فاذهب فاصلح ما

أفسدت . فقام الاشر فشخص نحو الكوفة فاقبل حتى دخلها والناس في المسجد
الأعظم فجعل لا يمر بقبيلة الا دعاهم وقال :

— اتبعوني الى القصر حتى وصل القصر فاقتحمه وأبو موسى يومئذ يخطب
الناس على المنبر و يثبظهم وعمار يخاطبه والحسن يقول :

اعتزل عملنا وتنح عن منبرنا لا أم لك .

قال أبو جعفر الطبري : فروى أبو مرهم الثقفى قال .

« والله انى لى المسجد يومئذ إذ دخل علينا غلمان أبى موسى يشتدون
و يبادرون أبا موسى : « أيها الأمير هذا الاشر قد جاء فدخل القصر فضر بنا
وأخرجنا » .

فزل أبو موسى من المنبر وجاء حتى دخل القصر فصاح به الاشر :

— اخرج من قصرنا لا أم لك ، اخرج الله نفسك فوالله انك لمن المنافقين
قديماً . . .

قال : أجلنى هذه العشية .

قال : قد أجلتك ولا تبينن فى القصر .

ودخل الناس ينتهبون متاع أبى موسى فمنعهم الاشر وقال :

— انى قد أخرجته وعزلته عنكم فكف الناس حينئذ عنه .

وخرج من الكوفة إلى جند على اثنى عشر ألفاً وقيل أقل . . . فقدموا

على على وهو فى ذى قار فرحب بهم وقال :

« يا أهل الكوفة ، أتم قانتم ملوك العجم ، ففضتم جموعهم حتى صارت

إليكم مواريتهم ، فمنعتم حوزتكم ، واعنتم الناس على عدوهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا

معنا اخواننا من أهل البصرة ، فان يرجعوا فذاك الذى نريد ، وان يلجوا

داويناهم بالرفق حتى يبدأونا بظلم ، ولم ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله »

رسل على الى البصرة

ورأى أمير المؤمنين ألا يعرض للقوم في البصرة بقتال قبل أن يبعث إليهم نذيراً يخوفهم الفتنة ، ويدعوهم إلى الطاعة والوحدة فدنا القعقاع وهو من سادات الكوفة ، ومن أصحاب رسول الله وقال له :

- ألق هذين الرجلين فادعهما إلى الآفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة ، ثم كيف أنت صانع فيما جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة مني ؟
فقال نلقاهم بالذي أمرت ، فاذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأي ، اجتهدنا الرأي وكنناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي .
فقال على : أنت لهما .

ومشى القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة فقال لها :

- ما اشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟

فقلت : أي بني اصلاح بين الناس .

قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما . فبعثت إليهما

فجاءا فقال القعقاع :

اني سألت أم المؤمنين ما اشخصها وأقدها هذه البلاد ، فقلت اصلاح بين

الناس فما تقولان أنما أمتابعان أم مخالفان ؟

فقالا : متابعان .

فقال : فأخبراني ما وجه هذا الاصلاح فوالله ان عرفناه لنصلحن ، وإن

أنكرناه لا نصلح .

فقالا : قتلة عثمان ، فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن .

فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف ، واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم الذي أفلت «حرقوص بن زهير» فمنعه ستة آلاف ، وهم على رجل ، فان تركتموه كنتم تاركين لما تقومون ؛ وان قاتلتموهم والدين اعتزلوكم ، فادبوا عليكم فالذي حذرتم وقعتم به ، هذا الأمر أعظم مما أراكم تنكروا ، وأنتم أحميم مضرور بيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصره لهؤلاء ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالا وقالت عائشة : فما دواء هذا الأمر ؟

فقال : لا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا ، فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتبشير رحمة ، ودرك بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر فأثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح العافية ولا تعرضونا للبلاء ، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

فقال له القوم : أحسنت وأصبت ، فان جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر .

رجع القعقاع إلى علي وأعلمه علم القوم ، وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح ، ثم أمر بالرحيل بعد أن جمع الناس وخطبهم خطبة قال فيها :

« ألا وإني راحل غدا فارتحلوا ، ألا ولا يرحلن غدا أحد أعان على عثمان
رضى الله عنه بشيء في شيء من أمور الناس ، وليغن السفهاء عن أنفسهم » .
وبذلك اتقى خطر الحرب من بين الناس ، وجاءت وفود قبائل البصرة
إلى قبائل الكوفة ، وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها ، وآمن الناس بعضهم
بعضاً ...

المؤامرة

واسكن بعد أن ألقى على كلمته هذه اجتمع نفر منهم علياء بن الهيثم ، وعدي بن
حاتم وسالم بن ثعلبة القيسي ، وغيرهم ممن سار إلى عثمان ، أورشى بمسير من سار ،
وجاء معهم المصريون وابن السوداء ، وخالد بن ملجم فتشاوروا وقالوا :
— ان علياً لن يتأخر عن الانتقام من قتلة عثمان والداعين إلى قتله
والثأرين عليه إذا ما كثر جمعه وتوطد مركزه وسنكون نحن أول الضحايا .
ودار الحديث دورته واشتد الجدل ، فنصحهم بن السوداء ، بالألا يدعوا
سبيلاً إلى السلام بين الناس ، وأن نجاحهم وخلصهم إنما يكون بإفساد الأمر
بين علي وخصومه فلا يتفقون عليهم ، وقال ان عزكم في خلطة الناس تصانعوهم ،
وإذا اتقى الناس غداً فأنشبو القتال ، ولا تفرغوهم للنظر ، فإذا من أنتم معه
لا يجد بداً من أن يمتنع ، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تكرهون » .
فأعجب القوم رأيه ، وتفرقوا عليه ، والناس لا يشعرون .



الفصل العاشر

معركة الجمل

وصف للمعركة ومقتل الزبير وطلحة

جيش علي

دخل جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى البصرة مما يلي الطف فخرج الناس ينظرون إليه ، فإذا موكب في نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهب عليه قفصاة وثياب بيض ، متقلد سيفاً مع راية ، وإذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين في الحديد والسلاح ، وكان هذا موكب الأنصار وعلي رأسهم أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية على فرس أشهب في نحو ألف فارس ، فإذا هو خزيم بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين ، ثم تلاهم فارس آخر على فرس أشهب عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سد لها بين يديه ومن خلفه ، شديد الأدمة عليه سكينه ووقار ، رافع صوته بقراءة القرآن متقلد سيفاً متنكب قوساً معه راية بيضاء في ألف من الناس مختلفي التيجان حوله مشيخة وكهول وشباب ، أثر السجود قد أثر في

جباهم ، فكان عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار
وأبنائهم ، ثم مر قيس بن سعد بن عبادة في الأنصار وأبنائهم ، ثم مر عبد الله
ابن عباس على فارس أشهل ما رأى الناس أحسن منه ، عليه ثياب بيض وعمامة
سوداء قد سد لها بين يديه بلواء ، ومعه عدة من أصحاب رسول الله ، ثم تواردت
المواكب حتى جاء موكب أمير المؤمنين في خلق من الناس عليهم السلاح والحديد
مختلفو الرايات ، وحول أمير المؤمنين الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية معه
الراية العظمى ، وحوله عبید الله بن جعفر بن أبي طالب ، وقتيان بنى هاشم ،
وخلفهم المشايخ من أهل بدر . . .

وانضم بنو القيس إلى علي حين أقبل إلى البصرة ، وسار حتى نزل الزاوية ومنها
مشى إلى البصرة ، وفعل مثل ذلك جماعة عائشة وطلحة والزبير حتى التقوا عند
موضع قصر عبید الله بن زياد ، وكان نزولهم في النصف من جمادى الآخرة سنة
ست وثلاثين للهجرة : . وأقام الناس ثلاثة أيام لم يكن بينهم قتال ، فكان يرسل
على إلهم يكلمهم ويدعوهم إلى ترك الخصومة ، وتوحيد الصفوف . .
ويقول ابن سعد في طبقاته وغيره :

« لما سار علي من المدينة إلى البصرة خرج معه أربعمائة راكب مع أصحاب
رسول الله ، فلما صار في أرض أسد وطىء تبعه منهم ستمائة ، ثم صار إلى
ذى قار وظل فيها حتى وافاه ستة آلاف من أهل الكوفة ، فسار بهذا الجيش
إلى البصرة وكان من السهل تمييز علي بقلنسوته المصرية البيضاء .

ويصفه المسعودي فيقول : كان عظيم البطن ، أصلع الرأس واللحية
أدعج عظيم العينين ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، تملأ لحيته صدره ،
ولا يغير شيبه .

ويتفق جميع المؤرخين بأنه كان عظيم اللحية جداً ، ومن المفروض أنه كان في سن أضي عليه الكثير من الاحترام ، فقد كان ينعم بالقربى ، والعلم وتقدم السن ، وكونه من الصحابة الأولين .

اعتزال الأحنف بن قيس

وكان الأحنف بن قيس زعيم تميم في البصرة في الحج أثناء مقتل عثمان بن عفان ، فلما انتهى الحج ذهب إلى المدينة فبايع علياً ورجع إلى قومه . . ولما علم باختلاف القوم فيما بينهم قرر الاعتزال مع أصحابه ، ولما قرب على من البصرة ذهب إليه الأحنف بن قيس وقال له :

- اختر منى واحدة من اثنتين ، إما أن أقاتل معك ، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف . .

فقال على : أكفف عنا عشرة آلاف سيف . .

فرجع الأحنف فدعا أصحابه إلى القعود ، فقدم معه جمع غفير ، فلما ظفر على جاء الأحنف وبايعه هو وأصحابه . .

والأحنف بن قيس من الشخصيات البارزة التي لعبت دورها في نشوء الإسلام وعهد الفتوح والصدر الأول من قيام الدولة الأموية . .

كان من تشويه الوجه بالقدر الأرفع ، ضئيل الجسم ، صغير الرأس ، متراكب الأسنان ، مائل الذقن ، ناتيء الوجنة ، غائر العينين ، خفيف العارضين ، أحنف الرجل ، ما تسكاد تحدد النظر في وجهه وجسمه حتى ترتد مذعورا ، من هول

ما ترى وما تنظر ، وهو إلى هذا سيد تميم ، و تميم من قبائل العرب ذات السلطان
والبأس والشوكة والصيت البعيد العريض ..

ساد قومه بحامه وعامه وفضله ، حتى بلغ مرتبة ليس بعدها مطلب لطالب ،
فضرب المثل بزعامته في قومه وشأنه في قبيلته ، فقالوا : هذا رجل إذا غضب
غضب لغضبه مائة ألف سيف لا يسألونه لماذا غضبت ...

وهذا والله العز ما بعده العز ، والزعامة ما بعدها الزعامة ..

ولد قبل الإسلام ، ولم ينل شرف الصحبة لرسول الله ، ولكنه نصح قومه
بتقبل الاسلام ، وكانت تميم من أعز قبائل العرب كما قدمنا ، كانت تسكن مساحة
كبيرة من جزيرة العرب ، تشمل نجدا وجزءا من البحرين ومثله من الهجامة ،
ثم انقسمت لكثرتها إلى فروع عديدة كانت تحارب بعضها أحيانا وتشد أزر
بعضها أحيانا أخرى ..

وكانت تميم من جملة من ارتد من قبائل العرب بعد وفاة رسول الله ، ثم عادت
إلى الاسلام ، وجاهدت في عهد الفتوح ، فلما انتهى الفتح سكن بعضها الكوفة ،
وسكن البعض الآخر البصرة ، وكان الأحنف سيد تميم البصرة .

كيف نسب القتال

ولما خرج طنحة والزبير وعائشة إلى قتال علي ، كان الناس كما قدمنا
لا يشكون في الصلح ، وكان الجميع ينتظرون الفرصة السانحة لاقرار هذا الصلح
وجعله مبرماً ...

ووقف الجيشان الواحد قبالة الآخر ، وما كانوا يزيدون عن ثلاثين ألفاً ،
وقد نزلت مضر إلى مضر ، وربيعة إلى ربيعة ، واليمن إلى اليمن ، فقد كان في
جند على وخصومه جماعات من بطون هذه القبائل الثلاث . . وكان أصحاب
على أكثر عدداً . . . ، ويقول المؤرخون انهم كانوا يقاربون العشرين
ألفاً ، وبات الناس وهم واثقون من الصلح والاتفاق على ماصار وصفه في الفصل
السابق ، وبات الذين أناروا أمر عثمان بشر لیسلة ، وقد سادهم الوجوم ،
واستشعروا قلقاً عظيماً ، وباتوا ينشاورون ، ثم أجمعوا أمرهم على انشاب الحرب
دون ما إنذار ولا إشارة ، فعدوا مع العلس ، وما يشعر بهم أحد ، وخرجوا
متسللين فقصدهم من كان منهم من مضر جماعته ، ومشى من كان من ربيعة إلى
قبيلته ، ومن كان من اليمن إلى اليمن ، فوضعوا فيهم السلاح والناس لا يشعرون
فتار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجه أصحابهم الذين أتوهم ونشب القتال
بين جماعة على وجماعة طلحة والزبير ، وبعثوا بالخبر إلى عائشة فركبت الجمل
المسمى عسكرياً في هودج ، وقد ألبسوه جلود النمر ثم ألبس فوق ذلك دروع
الحديد . . .

ويقول الشعبي عن مسلم بن أبي بكر عن أبيه أبي بكر أنه قال :

— لما قدم طلحة والزبير البصرة تقلدت سيفي وأنا أريد نصرهما ، فدخلت
على عائشة ، وإذا هي تأمر وتنهى ، وإذا الأمر أمرها ، فذكرت حديثاً سمعته
عن رسول الله « لن يفلح قوم تدير أمرهم امرأة » فانصرفت واعتزاتهم . .
ويؤكد هذا الخبر ما ذهبنا إليه سابقاً من أن عائشة أم المؤمنين كانت صاحبة
الأمر والنهي في جيشها وان أحداً لم يكن يخرج عن رأيها ، ولا يخالف لها
قولاً . . .

وإذا كان الأمر كذلك فهل كان لعائشة سياسة معينة ، عجمت ألوانها ،
ونثرت عيدانها ، فاسقبان لها القول الفصل فيها . . . ؟

عائشة والخزرج

ترى ما كانت ترمى إليه عائشة أم المؤمنين من أغراض سياسية لو انجحت
المعركة عن انتصارها ؟

أتراها كانت تباع لطلحة بن عبيد الله ، وتدعو المسامحين لمبايعته وهو ما
كانت تدعوا إليه وتنادى به وتقوم من الخليفة الجديد مقام (القوة وراء العرش)
فلا يصدر أمر إلا عن مشورتها ولا يصار إلى عمل إلا برأيها . . . ؟

ترى ما يكون موقفها لو انجحت المعركة عن انتصارها ومقتل طلحة والزبير
مثلا ، وهو ما حدث فعلا . . . أتراها كانت تفكر فيمن سبقها من سيدات العرب
من تولين السلطان والحكم وقيادة الجيوش والزخوف قبلها ، وفي ماضيات
الأيام كزَيْنَب في تدمر وبلقيس في اليمن . . .

وما دمنا في حديث العربيات الملوك فلنقتصر على القارىء حديث عربيتين
سبقتا عائشة أم المؤمنين في المغامرة والجد في طلب السلطان . . .

بلقيس

فهناك في صحراء العربية وفوق مشارف الأرض . وأفياء النمر ومسائل الماء
قامت مدينة مأرب عاصمة اليمن ومقر أقيالها ومستقر عواهلها . . .
وامتد سد مأرب بين يدي هذه الغمانية الناعسة يسقى برية أرضها ويبعث

فيها الحياة والهناء والرفاء ، بما مكن لسكانها من إنشاء حضارة رائعة وعمران موفور . . .

ورثت الملك عن زوجها وأبيها ، وأحسنت ما شاء الإحسان ، وأصلحت ماشاء الإصلاح ، ووطدت من أمرها ما قصر عنه سواها ، فلما سارت إلى سليمان سار في ركابها مائة ألف من ذوى الجلد والقوة ، شاكى السلاح ، يقطعون الصحراء ، ويسرون في الأرض ، وقد اطمأنوا إلى أنهم وفقوا في تقليد أمرهم إلى من يحسن إدارته ، ويعرف كيف يدفع عنه أغراض الغزاة ، وطمع الفاتحين . . .

وكان من أمرها مع سليمان نبي الله ما ذكره التاريخ ، فقد استبانت وضح الهدى وآية الله في أغراضه ، فلم يتملكها غرور الملك ، وعز السلطان ، فتبدلت بدين أبيها دين الله ، وأقامت آية التوحيد فوق ربوع الإشرار والمجوسية . . . وفي هذا ما يدل على رجاحة العقل ، وسماحة الرأي ، مما لا تجد مثله في الرجال إلا قليلا . . .

زينب

أما حديث زينب ملكة تدمر ، فليجدنه القارىء مليئاً بالطرافة مغموراً بالأسى ، فقد بسطت زينب سلطانها ونشرت أعلامها على ما بين مجاهل السودان ومعالم أنقرة الحاضرة ، من مسالك وممالك وأمم وشعوب .

وتقع تدمر في طرف بادية الشام إلى الشمال منها ، على مدى مائة وخمسين ميلاً من دمشق ، ومسيرة أيام من الفرات ، وكانت ملتقى القادمين والرائحين بين الشام والعراق ، لذلك كان اتجاع أهل هذا البلد إلى ذينك القطرين لا ينقطع ،

ومن أجل ذلك جمعوا بين مدينتي الفرس والرومان ، فأرهفت لذلك طباعهم
ورقت شمائلهم ، ونفذت أفهامهم ؛ وطفقوا يقيمون الأبنية ترسخ أصولها
في أعماق الأرض وتناطح مشارفها منازل الأفلاك ، وليس هيكل الشمس
والقصر الأعظم الذي بلغ ألفي ذراع في مثلها إلا برهاناً على ما تقدمه ، من
استفحال الحضارة ، واستبحار العمران في أرجاء هذه المملكة العربية القديمة .
وكانت زينب على فرط جمالها ، وعذوبة منطقتها ، وسباحة أسلوبها ، ونفاذ
لبها ، وعظمة قلبها ، من أشد الناس بأساً وأمضاهم عزماً ، وأرسخهم في
الحروب قديماً .

وكان إذا وقفت الصفوف ، وأشرعت الرماح ، والتمعت الأسنة ؛ تنقلد سيفها ،
وتعتقل رمحها ، وعلى رأسها خوذة ، ثم تمر بين الصفوف ، فتشعل قلوبهم ناراً ،
وعواطفهم حمراً ، ثم تدفعهم إلى المعارك ، فلا يمشون إلا إلى نصر ، ولا يتقلبون
إلا على فتح ، وبذلك تم لها افتتاح البلاد ، واقتحام المعامل ، حتى فاجأتها جنود
الرومان ، فراحت تحاربهم ، ورجالها يتفرقون عنها ، وينفضون من حولها ،
حتى أسلمت لعدوها ؛ فأخذت إلى روما أسيرة ، ثم أعيدت إلى قومها ، لمكانها
في نفوس قاهريها فعكفت على عزلتها ونسكها حتى ماتت .

عائنة في المعركة

وكذلك يعود بنا التفكير إلى موقف أم المؤمنين من هذه المعركة ، وقد
نزلت إليها بجملها وهودجها ، وسلاحها ؛ ترى ما كانت تفكر به قبل نشوب
القتال وبعده ، وبعد أن خاض ناصروها وخصومها في الدم ، أكانت لها
أغراض معلومة ، وفكرة سياسية محددة أم تراها تركت الأمر للأقدار ، فإن

وفقت إلى ما تريده كان لها رأيها ، وكان لها أن تختار من تشاء خليفة للمسلمين .
والواقع أن أحداً من المؤرخين لا يبحث هذه الناحية ولا يعرض لها ، فالذي
يذهب إليه الناس ، وقد ذهب إليه قبلهم كل من كتب في هذا الباب أن عائشة
أم المؤمنين إنما أثارت الحرب كرهاً منها لعلها كان بينها وبينه من الخصومة ،
وهو مالا ينكره أحد ، ولكن أكان هذا هو السبب الأوحده ؟ أم كانت هناك
أسباب سياسية أخرى ، أخفاها الفشل ، وقتلها الانكسار وهي ما تزال
في مهدها ؟ ...

علي وطلحة والزبير

فلما تراءى الجمعان خرج الزبير على فرس عليه سلاح فقيل لعلي :
— هذا الزبير . . .

فقال : أما إنه أحرى الرجلين إذا ذكر بالله تعالى أن يذكر ...
وخرج طلحة بعده ، فخرج إليهما علي حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال علي :
— لعمرى قد أعددتما سلاحاً وخيلاً ورجالاً ، إن كنتما أعددتما عند الله عزيراً
فاتقيا الله ولا تكونا كالتى نقضت غزلها ... ألم أكن أخاكما في دينكما ، تحرمان
دمى وأحرم دمكما ، فهل من حدث أحل لكما دمى ؟ ..
فقال طلحة : ألبت علي عثمان . . .

قال علي : يومئذ يوفيهم الله دينهم . . . الحق يا طلحة تطلب بدم عثمان ،
فلعن الله قتلة عثمان يا طلحة .. أجئت بزوجة رسول الله تقاتل بها ، وخبأت
زوجتك في البيت . . . أما بايعتنى ؟
قال : بايعتك والسيف علي عنقى ...

فالتفت على إلى الزبير وقال له :

— يا زبير ما أخرجك ؟

قال الزبير : أنت .. ولا أراك لهذا الأمر أهلاً .. ولا أولى به منا ..

فقال على : أأنت له أهلاً بعد عثمان .. ؟ قد كنا نعدك من بني عبدالمطلب ،

حتى بلغ ابنك ابن السوء - يعنى عبد الله بن الزبير - ففرق بيننا ... أتذكر يوم

قال لك رسول الله « ستقاتله وأنت ظالم له » .

قال الزبير : اللهم نعم ، ولو ذكرت ما سرت سيرى هذا .. والله

لا أقاتلك أبداً .

فانصرف على إلى أصحابه فقال لهم : أما الزبير فقد أعطى الله عهداً

ألا يقاتلكم ..

ورجع الزبير إلى عائشة فقال لها :

- ما كنت فى موطن منذ عقلت ، إلا وأنا أعرف فيه أمرى غير

موطنى هذا ..

قالت : فما تريد أن تصنع ؟

قال : أريد أن أدعهم وأذهب ..

فقال له ابنه عبد الله : جمعت بين هذين الفتيين حتى إذا حدد بعضهم لبعض

أردت أن تتركهم .. لسكنك خشيت رايات بن أبى طالب .. وعلمت أنها تحملها

فتية أمجاد .. وأن تحتها الموت الأحمر ، فجبنت ..

رواية ثمانية

وفي رواية أخرى أن علياً برز يوم الجمل ونادى بالزبير : يا أبا عبد الله مراراً .
فخرج الزبير فتقاربا حتى اختلفت أعناق خيلهما . .
فقال له علي :

- إنما دعوتك لأذكرك حديثاً قاله لي ولك رسول الله صلى الله عليه وآله
أذكرك يوم رآك وأنت معتنق فقال لك : « أتعبه ؟ » . قلت : « وما لي لا أحبه
وهو أخي وابن خالي » فقال : « أما إنك ستحاربه وأنت ظالم له » .
فاسترجع الزبير وقال :

- أذكرني ما أنسانيه الدهر . ورجع إلى صفوفه فقال له عبد الله ابنه :
- لقد رجعت إلينا بغير الوجه الذي فارقتنا به ؟
فقال : اذكرني علي حديثاً أنسانيه الدهر فلا أحراره أبداً وإني لراجع
وتارككم منذ اليوم .
فقال له عبد الله : ما أراك إلا جيبت عن سيوف بني عبدالمطلب ، إنما لسيوف
حداد تحملها فتية أنجاد .

فقال الزبير : ويحك أتتهجنني على حربته أما إنني قد حلفت ألا أحراره .
قال : كفر عن يمينك ، لا تتحدث نساء قريش أنك جيبت وما كنت جباناً .
فقال الزبير : غلامي مكحول حر كفارة عن يميني . . . ثم أنصل سنان رمح
وحمل على عسكر علي برمح لاسنان له فقال علي لأصحابه :

- افرجوا له فانه محرج . . ثم عاد إلى أصحابه ثم حمل ثانية ثم ثالثة ثم قال لابنه : أجبنا ويملك ترى .
فقال : لقد أعذرت .

مقتل الزبير

لما انصرف الزبير عن حرب على مر بوادي السباع والأحنف بن قيس هناك في جمع من بني تميم قد اعتزل الفريقين فأخبر الأحنف بمرور الزبير فقال رافعاً صوته :

- ما أصنع بالزبير ... جمع بين المسامحين للحرب حتى أخذت السيوف مأخذها انسل وتركهم أما انه خلّيق بالقتل قتله الله .
فأتبعه عمرو بن جرموز وكان فأنكا فلما قرب منه وقف الزبير وقال :
- ما شأنك .

قال : جئت لأسألك عن أمر الناس .
قال الزبير : إني تركتهم قياماً في الركب يضرب بعضهم وجه بعض بالسيف .
فسار ابن جرموز معه وكل واحد منهما يتقى الآخر فلما حضرت الصلاة قال الزبير :

- يا هذا إنا نريد أن نصلى .

فقال ابن جرموز : وأنا أريد ذلك .

فقال الزبير : فتؤمنني وأؤمنك .

قال : نعم .

فثنى الزبير رجله وأخذ وضوءه . فلما قام إلى الصلاة شد ابن جرموز عليه
فقتله ، وأخذ رأسه وخاتمه وسيفه ، وحشى عليه ترايا يسيرا ورجع إلى الأحنف
فأخبره فقال :

- والله ما أدري أسأت أم أحسنت . اذهب إلى علي فأخبره . فجاء إلى علي
فقال للآذن :

- قل له عمرو بن جرموز بالباب ومعه رأس الزبير وسيفه فأدخله .
وفي كثير من الروايات أنه لم يأت بالرأس بل بالسيف فقال له علي :

- أنت قتلته .

قال : نعم .

قال : والله ما كان ابن صفية جباناً ولا ثمياً ولكن الحين ومصارع السوء
ثم قال : ناولني سيفه . فناوله فهزه وقال :

- سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله . .

فقال ابن جرموز : الجائزة يا أمير المؤمنين .

فقال : أما انى سمعت رسول الله يقول بشرقاتل ابن صفية بالنار .
فخرج ابن جرموز خائباً .

أول القتال

لما اصطف أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب للقتال قال علي لأصحابه :
« لا ترموا بسهم ولا تطعنوا برمح ، ولا تضربوا بسيف واعذروا » .

وكان هذا رغبة منه في ألا يثير خصومه ، ولا يبدأهم بقتال ، لعل الله يردهم إلى صوابهم ، فيسود السلام ، وتحقن الدماء ..

ولكن المتآمرين كانوا في الميدان ، وقد أعدوا لكل شيء عدته ، فرمى رجل من معسكر طلحة والزبير بسهم فقتل رجلاً من أصحاب علي فأتى به إليه فقال علي :

- اللهم اشهد ..

ثم أصيب رجل آخر فقتل فقال علي :

- اللهم اشهد ..

وأصيب عبد الله بن بديل فأتى به أخوه يحمله فقال علي :

- اللهم اشهد ..

ثم كانت الحرب ...

مقتل طلحة

ولما بدأ القتال أصيب طلحة بسهم فشك رجلاه وهو ينادي :

- إلى الله عباد الله .. الصبر الصبر ..

فقال له القعقاع بن عمرو : يا أبا محمد إنك لجريح .. وإنك عما تريد لعليل ..

فادخل البيوت .. :

فدخل ودمه يسيل وهو يقول : اللهم خذ عثمان مني حتى ترضى ..

فلما امتلأ خفه دمياً وثقل قال لعلامه :

- اردفنى وامسكنى وابلغنى مكاناً أنزل فيه . . .

فدخل البصرة فأنزله في دار خربة فمات فيها . . .

وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره . . . وكان مروان فى معسكر طلحة والزبير يحارب علياً ، واسكنه كان ممن يحقد على طلحة لتأليه على عثمان ، ومروان كان كاتب عثمان ومستشاره ، والرجل الذى كان سبب كل الرزايا التى نزلت بالخليفة الثالث . . .

القتال السريير

ويظهر أن جماعة عائشة تراجعوا فى أول المعركة من شدة الهجوم الذى قام به فرسان على وأنصاره ، وانهمزموا يريدون البصرة ، فلما رأوا الخيل أطافت بالجلل وفيه عائشة أم للمؤمنين عادوا وقد دبت النخوة فيهم ، وراحوا يدافعون عنها كأحسن ما يدافع الأبطال . . .

ودعت عائشة فى هذه الأثناء كعب بن سور فأعطته مصحفاً وقالت :

- تقدم به فادعهم إليه . . .

فلم يوفق وجاءه سهم فأودى به . . .

فاذا صح هذا الخبر وقد رواه غير واحد من المؤرخين ، فتكون عائشة أول

من فكر بالصالح وحقن الدماء بعد بدء المعركة بقليل ، وبعد مقتل طلحة

وانسحاب الزبير ، ولكن الخبر كما يظهر لم يصل إلى مسامع علي ، وحالت الخيل
والرماح دون وصول الرسول إليه (١) . .

وبدأت المعركة شديدة قاسية كالحلة مخيفة ، وانهاالت السهام على حمل عائشة
وتسامت أم المؤمنين قيادة الجيش وقد قتل طلحة ، وانسحب الزبير فلم يبق في
الميدان إلاها تحرض الناس ، وتدعو إلى الثبات وجعلت تنادي :

- البيضة البيضة يا بني ...

ويعلو صوتها وهي تقول :

- الله الله اذكروا الله والأحساب ...

فلما رأت أن خصومها يأبون إلا إقداماً ، وأنهم ما يبرحون يرمون جملها
بالسهام ، راحت تنادي أنصارها وتقول :

- أيها الناس العنوا قتلة عثمان ...

وأقبلت تدعو ، وضج الناس بالدعاء فسمع على الضجة فقال :

- ما هذه الضجة ؟

فقالوا : عائشة تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم . .

فقال علي : اللهم العن قتلة عثمان ...

المعركة هول الجمل

خاضت أم المؤمنين المعركة مع الخائضين ، وتقدمت الصفوف وهي تحرض

(١) وتكون أيضاً قد سبقت عمرو بن العاص في دعوة الناس إلى تحكيم القرآن فيها
أشكل بينهم . . وهو ما فعله عمرو بن العاص ومعاوية في معركة صفين بعد ذلك . .

جماعتها على الثبات حين رأت جماعة على يريدونها ، ولا يكفون .. فحملت مضر
البصرة حتى قصفت مضر الكوفة ...

فقال على وقد رأى اشتداد القتال لابنه محمد بن الحنفية وكان يحمل رايته:
- احمل ...

فحمل يهز الراية ، وحملت مضر الكوفة معه ، فاجتلدوا قدام الجمل ..
وأصحابه يدافعون عنه لا يسمحون لأحد أن يتقدم إليه أو يدنو منه ..
فلما رأى على ذلك بعث إلى ربيعة وإلى اليمن : أن اجمعوا من يليكم .
وكان أهل الكوفة لا يريدون إلا القتال ، ولا يريدون إلا عائشة .. واشتد
القتال هولاً وشدة وقسوة ، وقاومت مضر الكوفة مضر البصرة ، وجالدت
ربيعة البصرة ربيعة الكوفة ، وقاتلت اليمن بعضها قتالاً عنيفاً ...

وعائشة في هذه الأثناء تشجع الناس حولها ، وتتقدم في المعركة على هودجها
وقد قتل من بني ضبة - وكانوا حماة الجمل - خلق كثير ، وهم يدافعون عنه ،
فلم يبق منهم إلا من لا نفع عنده ، فأخذت عندئذ الأزدي بحطامه فقالت عائشة :
- من أتم ؟

فقالوا : نحن بنوك الأزدي .

فقالت : صبراً فأنما يصبر الكرام .. وما زلت أرى النصر مع بني ضبة فلما
فقدتهم أنكرته .. فأثارت حمية الأزدي بكلامها هذا ، فقاتلوا قتال الموت ..
وكان الناس يتبارزون ما بين ذلك .. ولم يزل القتال شديداً حول الجمل ،
حتى قتل حوله خلق كثير ..

ولقد أجمع المؤرخون على أن أشد القتال كان حول الجمل وحول أم المؤمنين عائشة ، وكان بنو ضبة قد أحاطوا به وأطافوا حوله أول الأمر فقتل منهم ألفان ، ولم يبق منهم أحد ، فأطاف به الأزدي فقتل ألفان وسبعمائة ، وكان لا يأخذ خطام الجمل أحد إلا سالت نفسه ، ودامت الحرب أربع ساعات من النهار ...

وقتل في سبيل الجمل من أصحاب علي خلق كثير أيضا ، وجرح عبد الله بن الزبير سبعا وثلاثين جراحة . . ونادى علي بأصحابه :

— اعقروا الجمل . . فإنه ان عقر تفرقوا

فضربه رجل فسقط ... وخرج منه صوت عظيم .

وانهزم الناس . فنادى منادى علي :

— لا تتبعوا مدبراً . ولا تجهزوا على جريح . ولا تدخلوا الدور .

عائشة بعد المعركة

وأمر علي ابن أبي طالب أختا عائشة محمد بن أبي بكر وكان من أنصاره ، أن يضرب علي أخته قبة وقال :

— انظر هل وصل إليها شيء من جراحة ؟

فأدخل رأسه فسألها عن حالها ؟

وقيل لما سقط الهودج بسقوط الجمل ، أقبل محمد بن أبي بكر إليه ومعه عمار بن ياسر ، فاحتملا الهودج فنجياه . وأدخل محمد رأسه وسألها عن حالها فقالت :

- ما أنت وذاك .

وقال لها عمار : كيف رأيت بنيك اليوم يا أماء ؟

فقلت : لست لك بأأم ...

فقال : بلى وإن كرهت .

وجاء على فقال : كيف أنت يا أمه .

قلت : بخير .

قال . يغفر الله لك .

قلت : ولك .

عودة عائشة إلى مكة

فلما كان الليل أدخلها أخوها محمد بن أبي بكر البصرة ، فأنزلهما في دار عبد الله بن خلف الحزاعي . وتسلسل الجرحى من بين القتلى ليلاً فدخلوا البصرة ، وأقام على بظاها ثلاثاً ، وأذن للناس بدفن موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوهم ، وصلى على القتلى من أهل البصرة والكوفة . وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء . وأمر فدفنت الأطراف في قبر عظيم . وجمع ما كان في العسكر من شيء فبعث به إلى مسجد البصرة وقال :

- من عرف شيئاً فليأخذه ، إلا سلاحاً كان في الخزان عليه سمة السلطان . وكان جميع القتلى عشرة آلاف أو أكثر ، نصفهم من أصحاب علي ، والنصف الآخر من أصحاب عائشة .

ثم جهز علي عائشة بكل ما ينبغي لها من مركب وزاد ومتاع ، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها . إلا من أحب المقام ، واختار لها أربعين سيدة من

نساء البصرة ، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر ، فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه أتاهما علي فوقف لها ، وحضر الناس ، فخرجت فودعتهم وقالت :

— يا بني لا يعتب بعضنا على بعض ، انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وبين אחماتها ، وأنه على معتبتي لمن الأخيار ..

فقال علي : صدقت والله ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وأنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة .

وخرجت يوم السبت غرة رجب ، وشيعها علي بن أبي طالب أميالا ، وسرح بنيه معها يوماً ، فذهبت إلى مكة ثم رجعت إلى المدينة (١) .

(١) ويذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة خطبة فيقول :
« خطبت عائشة الناس يوم الجمل وقد أخذوا مصافهم للحرب فقالت : أما بعد فانا كنا نتمنا على عثمان ضرب السوط وإمارة القتبان وموقع السحابة المحمية ، ألا وإنكم استعذبتموه فأعذبكم ، فلما مصصتموه كما يمض الثوب الرخيص عدوتم عليه ، فارتكبتم منه دماً حراماً ، وإيم الله انه كان لأحصنكم فرجاً وأتقاكم لله .. »

خطاب لعلي

وخطب علي لما توافقت الجمعان فقال :

« لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم فإنكم بحمد الله على حجة ، وكفاكم عنهم حتى يبدءوكم حجة أخرى .. وإذا قاتلتموهم فلا تجهزوا على جريح ، وإذا هزمتهم فلا تتبعوا مدبراً ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، وإذا وصلت إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترأ ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً ، ولا تهيجوا امرأة بأذى ، وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم ، فانهن ضعاف العقول والقول والأنفس .. لقد كنا نؤمر بالكف عنهم وانهم لمشركات ، وإن كان الرجل ليتناول المرأة بالهراوة والجريدة فيعير بها وعقبه من بعده . فكيف وهن مؤمنات .. »

الموقف من أهل الجمل

وقد اختلف المتكلمون في من اشترك في يوم الجمل ، فقالت الامامية من الشيعة : كفر أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع ، أى الدين حاربوا عليا . وقال آخرون : اجتهدوا فلا اثم عليهم ، ولا نحكم بخطئهم .. ولا خطأ على وأصحابه ..

وقال قوم : بل نقول أصحاب الجمل اخطأوا ، ولكنه خطأ مغفور كخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع من الشرع .. وإلى هذا ذهب أكثر الأشعرية وهم أهل السنة ..

وقال المعتزلة : أهل الجمل هالكون إلا من ثبت توبته منهم ، وعائشة ممن ثبتت توبته ، وكذلك طلحة والزبير . أما عائشة فانها اعترفت لعلى يوم الجمل بالخطأ وسألته العفو . وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم وأنها كانت تقول : - ليته كان لى من رسول الله بنون عشرة كلهم نكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وأنها كانت تقول : ليتنى مت قبل يوم الجمل .

وأنها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكى حتى تبل خمارها . وأما الزبير فقد رجع عن الحرب معترفاً بالخطأ . وكذلك الأمر في طلحة الذى يقال إنه بايع عليا بواسطة أحد أنصاره .

بعر الحمل

ومما يروى أنه دخلت أم أوفى العبدية على عائشة بعد الجن فقالت :

— يا أم المؤمنين ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً ؟ .

فقالت عائشة : وجبت لها النار .

فقالت أم أوفى : فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكبر عشرة آلاف

فقالت عائشة : خذوا بيد عدوة الله . .

الفصل الحادي عشر

عظة يوم الحمل

المسلمون يقاتل بعضهم بعضاً

وأخيراً تلاقى العرب للمسلمون في صعيد واحد ، يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دماء بعض ، وكل فرقة تأمر بكبير من أصحاب رسول الله ، وعظيم من عظماء الإسلام . فسهل بعدها أن يحارب العربي المسلم أخاه العربي المسلم ، وأن يسفك دمه ويرفع السيف عليه ، وكان قبلاً لا يرفع سيفه إلا اعزازاً لدين الله ، وترويحاً لدعوة محمد ، وأمرأً بالمعروف ونهياً عن المنكر ولقد نفضنا في الفصول السابقة حديث الخلاف ، وجلونا أخبار الفتنة بأقصى ما في طوقنا من البيان ، ونظن أننا وفقنا على قدر وإن القارىء واقع على أسباب الفتنة وأخبارها وأحداثها بما يمكنه من تفهم الحقائق ويساعده على الوصول إلى الرأي الحق في ما حدث وكان .

والواقع أننا في فترة من الزمن اختلف فيها المسلمون شيعاً . وتمزقت آراءهم وأغراضهم ، فلم يوفقوا إلى الحق فيها والصواب في شأنها ، حتى الدين حـمـلوا

لواء الفتنة ، واندفعوا في غمارها وأغوارها ، فقد روى عن الزبير بن العوام أنه
سمى في بعض خطبه ما فيه الناس (فتنة) فقال له بعضهم :

— أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه ؟

فقال : والله ما وضعت رجلى في شيء الا وأنا أعلمه ، إلا هذا الأمر فاني
لا أدري أيقبل أم يدبر .

وروى عن طلحة مثل ذلك وأنه قال : ما يعرف أهو على حق وصواب ،
أم على خطأ وظلم... وإذا كان هذا موقف القائلين بهذا الأمر ذلك العهد ، فكيف
بالمؤرخ المعاصر وقد بعدت الشقة بينه وبين هذه الأحداث ، واختلف المؤرخون
اختلافا عظيما في تأويلها وتفسيرها وأخبارها وبحثها .

ويؤيد ما أشرنا اليه من اختلاف الرأي موقف طائفة من الصحابة لم تبايع
عليا ولم تبايع غيره ، ولم تشرك في شيء من الخلاف القائم . وفضلت العزلة ، ومن
أشهرهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، ومحمد بن مسامة ، وسعد بن وقاص ،
وأسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت ، وعبد الله بن سلام ، ومن قول سعد بن
أبي وقاص في ذلك :

« ان رسول الله أمرني اذا اختلف الناس أن أخرج بسيفي فأضرب به عرض
أحد ، فاذا انقطع أتيت منزلي فكنت فيه لا أبرحه حتى تأتيني يد خاطية ، أو
منية قاضية » .

المسؤولية

ولقد بسطنا في كتابنا هذا كيف انتهى أمر طلحة والزبير سر يعا بانهمزاهما
وقتلها في وقعة الجمل ، وكيف عادت عائشة بعدها الى المدينة ، فلم تخرج منها

بعد ذلك الى حرب أو قتال ، وكيف حملت لواء هذا الزحف ، وتولت كبره ،
وتقدمت الرجال الى المعركة ، وحشت الناس على المطالبة بدم عثمان ، ونحن الذين
نؤرخ معركة الجمل لا نستطيع أن نتجاهل بسالتها في الموقعة ، ووقوفها تسيطر
على أقدار الجند ، وتحثهم على الاستبسال ، وتدفعهم الى حومة الوغى ، والسهام
تساقط عليها وعلى جملها ، فلا تلبين ولا تخاف ؛ ولا تضطرب ولا تنزع حتى
سقط حول الجمل سبعون قرشيا من البواسل والمغاوير وآلاف غيرهم من المساعير ،
ولكن بسالتها هذه لم تنجها من حكم التاريخ فقد أنكر عليها موقفها المؤرخون
وقالوا : ما كان لها أن تتولى كبر هذا الأمر ولا أن تطالب كما تزعم بدم عثمان ؛
لأن أولياءه كثيرون ، وقد علمت أن معاوية بالشام غير وان في أمره ، ولا
متخاذل فيه ، وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان ، وأمس به رحماً ، وأقرب
قربة ، وليست رحمها الله بمن جعل الله لهم سلطان هذا الأمر ، ولولا وجودها
في هذا الجيش لماتت الفتنة في البصرة ، ولم يكن لهم نظام ولا حمية ، وجودها
كان سبباً لاشتداد البلاء على المسلمين ، ومشاراً لأمر أنتجت الحزن والأسى
والفرقة والاختلاف .

وأما طلحة والزبير فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان في شيء وقد كانا له
بين قائم في الفتنة مشير حريقها ، و بين خاذل مشير إشارته أنفذ من سيف ، لا
يعنيه من الأمر إلا أن تكون الفتنة بيد غيره و يباشرها سواء ، حتى تساق إليه
الخلافة ويده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل ، فلما وقعت الواقعة
وأخطأ ما أمل ، ورأى أنه كان يسعى لغيره ، رجا أن ينال في سلطانه بعض ما
له عزاء . فلما رأى الفائز قد نفص يده عنه ، ولم يسوغ له ما أراد ، ندم وخرج

كل منهما ليغسل الدم بالدم ، ويكفر عن السيئة بما هو أسوأ منها عاقبة ، فسهلا على عائشة خروجها إلى ماليس من شأنها ، راجين بلوغ الأرب بمكانها ، فكان الموت فيما يرجون ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون ،

شخصية علي

ونأتى أخيرا إلى شخصية رائعة ، هي شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وهي من أصعب الشخصيات تصويرا ، لما دخلها من المبالغات والأكاذيب ، وما دار حولها من الجدل ، فقد أفرط في بحثها المحبون والكارهون ، واختلف حولها المختلفون ، وتأسست من أجلها المذاهب الدينية ، وذهب المؤرخون يقولون في بحث الفتنة إنه لم يكن عند علي من الأناة ، وحسن التآني للأمر ما يتألف به الشارد ويسلس قياد الجامح ، ولو أنه أرضى الرجلين (طلحة والزبير) ببعض ما في يده مما ليس فيه معصية لله ، ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثرا في العاقبة وأقطع لدابر الفتنة ، وإذا اعتذر له بعضهم بأنه لم يفعل ذلك اشفاقا منه أن يؤلبا عليه الناس . والبصرة والكوفة فيهما الرجال والأموال أوجب المؤرخون : « بأنه كان من الحكمة ارضاؤهما أول الأمر ، حتى إذا اتسق له الملك أبعدها ، فيكون قد حقن بذلك الدماء ، وأدرك ما أراد » .

والواقع أننا لا نرى أمير المؤمنين عخطئا في منعهما الولاية التي طلباها ، وقد أظهرنا مثل هذه الرغبة الملحة فيها ، ولو أنه أقطعهما العراقيين لما كان هناك مانع يمنعهما ويبيدهما الأموال ، وعندهما الرجال ، من الدعوة لأنفسهما ، خصوصا وان لكل منهما شيعة كانت تروج له وتدعو لولايته ، ومعاوية في الشام يدعوها

إلى الثورة ، ويسألها النصره ، ويمنيهما بالخلافة ، ولذلك لا نرى الاعتراض على أمير المؤمنين من الحكمة في شيء أبداً .

ولكن علياً إلى ذلك كله لم يكن القوى على جنده المالك لزمنا عسكريه ، الحذر لكل ما يخاف ، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم ، وكان عمر بن الخطاب وهو في المدينة واقفا على كل صغيرة وكبيرة في أمر جنده بالعراق وفارس وارمينا والشام ومصر وتخوم الروم ، لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشراهم ، وأما الإمام فقد كان تاركا شأنهم وهو بين ظهرانيهم ، يجتمعون ويدبرون الأمور ويبتنون الشر ويكيدون له وللمسلمين حتى لقد فكروا في الكيد له والحاقه بعثمان ، وهو لا علم له فيما يدبرون ، ولو كان من الضبط لأمره والحيطه في شؤونه بالمكان الذي يجب أن يكون به ، لما مكن رجال الفتن أن ينشبوا القتال على الشكل الذي أشرنا إليه قبلا .

تعليق المعاصرين

« ولا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه ، فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا - كما يقولون - للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ، ولا نرى كيف فهموا أن ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر في تحقيق هذه القضية وإقامة الحد على من يستحقه (١) ؟ »

(١) الحضري .

« ان اعطاء الحق للأفراد في أن يجتمعوا لإقامة حد قصر الامام في إقامته ،
أو اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الاسلام ، وإذا كانوا لا يرون
إمامة على صحة فقد كان الواجب دعوة أهل الحل والعقد من كبار المساميين
أولاً للنظر في أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ، ثم ينظرون بعد ذلك في
اقامة الحد ، ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم
من غير أن يكون لهم امام يرجعون إليه ، ولا ندري كيف غاب كل ذلك عنهم
مع سابقتهم وفضلهم ، ولكنهم يقولون ان الفتن إذا أقبلت تشابهت ، وإذا أدبر
تبينت .

« والواقع أن أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبو
الحرب حتى اشبه الأمر على الفريقين ، وكان من الخطأ العظيم أن يستعين على
بمثل هذه الفرقة ويجعلها تأوى إلى جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيه من
كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان ، لأنهم قوم لا يحسن في نظرهم أن يتفق على
ذلك الناس ، والاتفاق إنما يقع على رؤوسهم ، فهم يبذلون كل جهدهم في تضيق
المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظاً لأنفسهم ، على ان مجرد وجودهم في
جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول موقفه وان كان هو ينكر ذلك انكاراً تاماً
وهو عندنا الصادق في قوله .

« والواقع أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين كما أنها تدلنا على
أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل ألا يكون قد فعله ، بل يجب عليه أن
يبتعد عن ما يحدث الريبة في براءته ، وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن
يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه ، بل يجب مع هذا
أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة ما يعيد الخارج عليه إلى حظيرته » .

ومن الجميل أن نقول في ختام هذا الفصل إن سيرة أمير المؤمنين في أصحاب الجمل ، كانت سيرة رفق وحلم عظيمين بعد الواقعة وكان من أمره ألا يُقتل مدبر ، ولا يُجهز على جريح ، ولا يكشف ستر ، ولا يؤخذ مال من صاحبه ، ومثل هذا ليس بالكثير على أمير المؤمنين ، وربيب رسول رب العالمين .

والواقع أن غلبة على في وقعة الجمل ، كانت نصراً لأهل الكوفة على أهل البصرة ، كما أن مقتل الزبير وطلحة وغيرهما من سادات قريش في هذه الواقعة كان عظيم الأثر في مركز قريش وزعامتها على القبائل العربية ، ومما لا شك فيه أن هذه الحرب قد أضعفتها ، وأضرت بقوتها ضرراً بليغاً وكان من أثر هذا الفوز ، وكره قريش لعلى ونصرة أهل الكوفة له ، أن ذهب أمير المؤمنين ينقل مركزه من المدينة إلى الكوفة بحيث يكون بعيداً عن قريش وحقدها ، قريبا من الكوفة وتأيدها .

سأرة الخلافة

والذى يصار إلى بحثه في ختام هذا الكتاب هو أن مسألة الخلافة كانت سبب كل ما جرى من نزاع وانقسام في الإسلام ، فقد كان السؤال الذى تبادر على الألسنة بعد وفاة رسول الله هو : من يخلفه ؟ وهل نصب رسول الله عليا حقا ليقوم مقامه من بعده وهو صهره ؟ أم كان يرى صلى الله عليه وسلم أن يصار إلى انتخاب الخليفة من وجوه المسلمين على نحو أوسع من الشورى وأضخم ؟ وهل يدل أمره أبا بكر بالصلاة بالناس على اختياره للخلافة ؟

هذه المسائل الشائكة هى التى شقت الإسلام إلى شقين وأدت أخيراً إلى

امتشاق السيف ليصار إلى تسويتها بالسيف ، كما هيأت الأساس التاريخي لتطور عقيدة الامامة .

وقد أدى الاختلاف على الخلافة بين المسلمين إلى اختلاف آخر يتعلق بحقوق الخليفة وامتيازاته ، فالخليفة عند السنة مثلاً هو رئيس السلطة الزمنية ، وعجز من كل سلطة تتعلق بالعقيدة ، فليس هو في الواقع سوى حامى الشريعة والنائد عن حياض الإسلام ، وهو لا يشبه الإمام عند الشيعة في كثير ولا قليل ، لأن الامام عند الشيعة أنصار الإمامية ، والذين يقولون بأحقية علي بن أبي طالب بالخلافة على أن يرثها أبناؤه من بعده هو إمامها الأكبر ، ومعلمها المعصوم ، وهو ليس خليفة محمد بن عبد الله الزمى فحسب ، بل وراث مركزه ، والمنصوص عليه منه ، ومفسر وحيه ، وهو الزعيم الديني والدينوى معا ، ومركزه أسمى من مركز البابا في المسيحية إذ يضيف إلى صفته ، صفة التنزيه والنصب من الله ، فهو الطريق الوحيد لمعرفة الله .

ويبدو لنا أن رسول الله كان كثير الرغبة في الولد ، لأننا نراه يتزوج في السنتين السادسة والسابعة للهجرة غير مرة ، وقد يدل هذا على أنه لم يكن قانعا كل القنوع في أمر من يخلفه في بيته ، وفي السنة الثامنة للهجرة أولد مارية القبطية التي أهداها إياه صاحب مصر ، ولداً أسماه إبراهيم ، وفرح به رسول الله فرحاً عظيماً ، وعق له في اليوم السابع بأن نحرك له كبشاً كما هي العادة . وتصدق بوزن شعره فضة بعد أن حلقه ، فهل خطر لرسول الله أن يحصر المركز الدينوى في ولده من بعده . إنه في الواقع سؤال من الصعب البت فيه لأن هذا الطفل المحبب إلى الرسول توفى ولما يدرك السنتين من العمر .

وكذلك جرت الأمور على النحو الذي أراده الله ، ولو ترك رسول الله ولداً لتبدل وجه التاريخ . . .

المصادر

المصادر العربية

ابن سعد	طبقات بن سعد
ابن قتيبة	الامامة والسياسة
»	المعارف
للبلاذري	فتوح البلدان
»	أنساب الاشراف
أحمد بن يعقوب	- تاريخ يعقوبى
الطبرى	- « الأمم والملوك
ابن خلدون	» ابن خلدون
ابن عساكر	» دمشق
للديار بكرى	» الخميس
ابن الأثير	الكامل
المقدسى	أنساب القرشيين
ابن عبد البر (طبع الهند)	الاستيعاب
للأصفهاني	- الأغاني
ياقوت الحموى	معجم البلدان
ابن الأثير	- أسد الغابة
المبرد	الكامل
أبو الفداء	المختصر فى أخبار البشر
ابن حجر العسقلانى	الإصابة فى تمييز الصحابة

البخارى	صحيح البخارى
ابن أبى الحديد	شرح نهج البلاغة
ابن خلصان	- وفيات الأعيان
. . .	فوات الوفيات
ابن طباطبا	الفخرى
ابن عبد ربه	- العقد الفريد
ابن العبرى	مختصر تاريخ الدول
المسعودى	- مروج الذهب
للدينورى	الأخبار الطول
. . .	البداية والنهاية
ابن سلام	الأموال
أبى يوسف	كتاب الخراج
المدائنى	كتاب الجمل
عبد الوهاب النجار	الحلفاء الراشدون
محمد الحضرى	تاريخ الأمم الإسلامية
جرجى زبدان	التمدن الإسلامى
أحمد أمين	فجر الإسلام
محمد كرد على	خطط الشام
الشهرستانى	- الفصل فى الملل والنحل
لابن حزم	الملل والنحل
ابن قتيبة	عيون الأخبار
الجاحظ	الحيوان
المقرئزى	المواعظ والاعتبار
النوبختى	فرق الشيعة
أبو المحاسن	النجوم الزاهرة

عمر أبو النصر	أبو بكر
»	عمر بن الخطاب
»	عثمان بن عفان
»	علي بن أبي طالب
»	معاوية بن أبي سفيان

المصادر الأخرنجية

موير	الخلافة
	دائرة المعارف البريطانية
	» » الإسلامية
	مجموعات المجلة الآسيوية
لامنس	فاطمة بنت محمد
لامنس	معاوية
هوار	تاريخ العرب
مرغوليوت	المحمدية
عن القرامطة	مذكرات دي غويني
نيكولسن	تاريخ العرب الأدبي
ارنولد	الخلافة

وقد اعتمدنا في الوقت نفسه على مؤلفات فون فلوتن وغولد زهير في دراساته عن الإسلام ، كما قرأنا ما كتبه المؤلف الهندي بوش كودا عن الحضارة الإسلامية وما أصدره كيتاني المؤرخ الإيطالي عن تاريخ الإسلام ؛ وهناك بعض المؤلفات القديمة التي صدرت عن محمد والإسلام لسنوات خلت في الإنجليزية أو منذ ثلاثين سنة أو أكثر ، وهذه في أكثرها لا تعتبر من المصادر الموثوقة ، وأوثق الدراسات كان ما صدر عن الألمان ، أو من هم من أصل الماني ، وأضعفها ما كتبه ولس وغيلمان وايرفنغ ، ولان بول وأمثالهم . .



فهرس

الصفحة	الفصل	
٥		مقدمة الكتاب
٩	١	المؤامرة
١٦	٢	عائشة أم المؤمنين
٢٣	٣	أسباب الحصومة بين علي وعائشة -
٣١	٤	بيعة علي بن أبي طالب
٣٨	٥	هاتم وأميمة
٥١	٦	عائشة زعيمة الحزب المعارض
٥٨	٧	الفتنة أسبابها ونتائجها
٦٩	٨	التأهب إلى البصرة
٨٦	٩	علي بن أبي طالب في طريق البصرة
٩٩	١٠	معركة الجمل -
١٢١	١١	عظة الجمل
١٢٩		مصادر الكتاب
١٣٢		فهرس الكتاب

للمؤلف

مطبوعات المكتبة الأهلية في بيروت

هرون الرشيد	فاطمة بنت محمد
تيمورلنك	أبو بكر الخليفة الأول (الطبعة الثانية)
الأمير عبد الكريم بطل الريف	عمر بن الخطاب
* فيصل ملك العراق	عثمان بن عفان
* سيد الجزيرة العربية (ابن السعود)	* علي بن أبي طالب (١)
* كفاح هتار	* معاوية بن أبي سفيان
* هتار المرعب	يزيد بن معاوية
* البحث عن الله	الحجاج بن يوسف
(قصة نبيلة انكليزية تقبلت الإسلام)	* خالد بن الوليد
الحسين بن علي	الحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨ (مجلدان)
محمد النبي العربي	بألفي صفحة من القطع الكبير
* ماذا يجب أن تعرف عن محمد والإسلام	العراق الجديد
محمد وأقوال المستشرقين في رسالته	

(١) ترجم هذا الكتاب إلى الفارسية وطبع في طهران سنة ١٩٣٩

(* هذه الإشارة تدل على أن الكتاب نفذت طبعته

مطبوعات دار الفجر العربية ببيروت (١)

- | | |
|---|---|
| * جهاد فلسطين العربية | مواقف مؤثرة في تاريخ محمد بن عبد الله |
| * اليقظة العربية | الاشتراكية والشيوعية في الإسلام |
| * تركيا الجديدة | قلعة الموت |
| * دولة الأدب والبيان | (تاريخ الحسن بن الصباح زعيم الحشاشين) |
| * رجال الجمهورية (في لبنان) | رايات الإسلام - فتوح العرب في العراق - |
| * عشرون سنة بعد الحرب | الفتوح العربية في سورية |
| * العرب | مسرحيتان في كتاب واحد |
| (مجموعة تاريخية تبحث تاريخ الأمة العربية منذ فجر التاريخ إلى وفاة محمد بن عبد الله) | |
| الدهاة الثلاثة | |
| (زياد بن أبيه ، المغيرة بن شعبة ، عمرو بن العاص) مكتبة مصر ومطبعها ١٩٤٦ | |
| | <u>مطبوعات أخرى</u> |
| | * تاريخ سورية ولبنان (جزآن) |
| | * البوليس (مجلدن) - مجموعة بوليسية روائية - ١٩٣٣ |
| | * أرسين لوبين (مجلدان كبيران) مجموعة بوليسية روائية - ١٩٣٨ - ١٩٣٩ |

(١) صار طبع هذه الكتب مؤخراً في أواخر سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦

(* هذه الإشارة تدل على أن الكتاب نفذت طبعته

بصدر المؤلف

السياسة والخلافة عند الشيعة

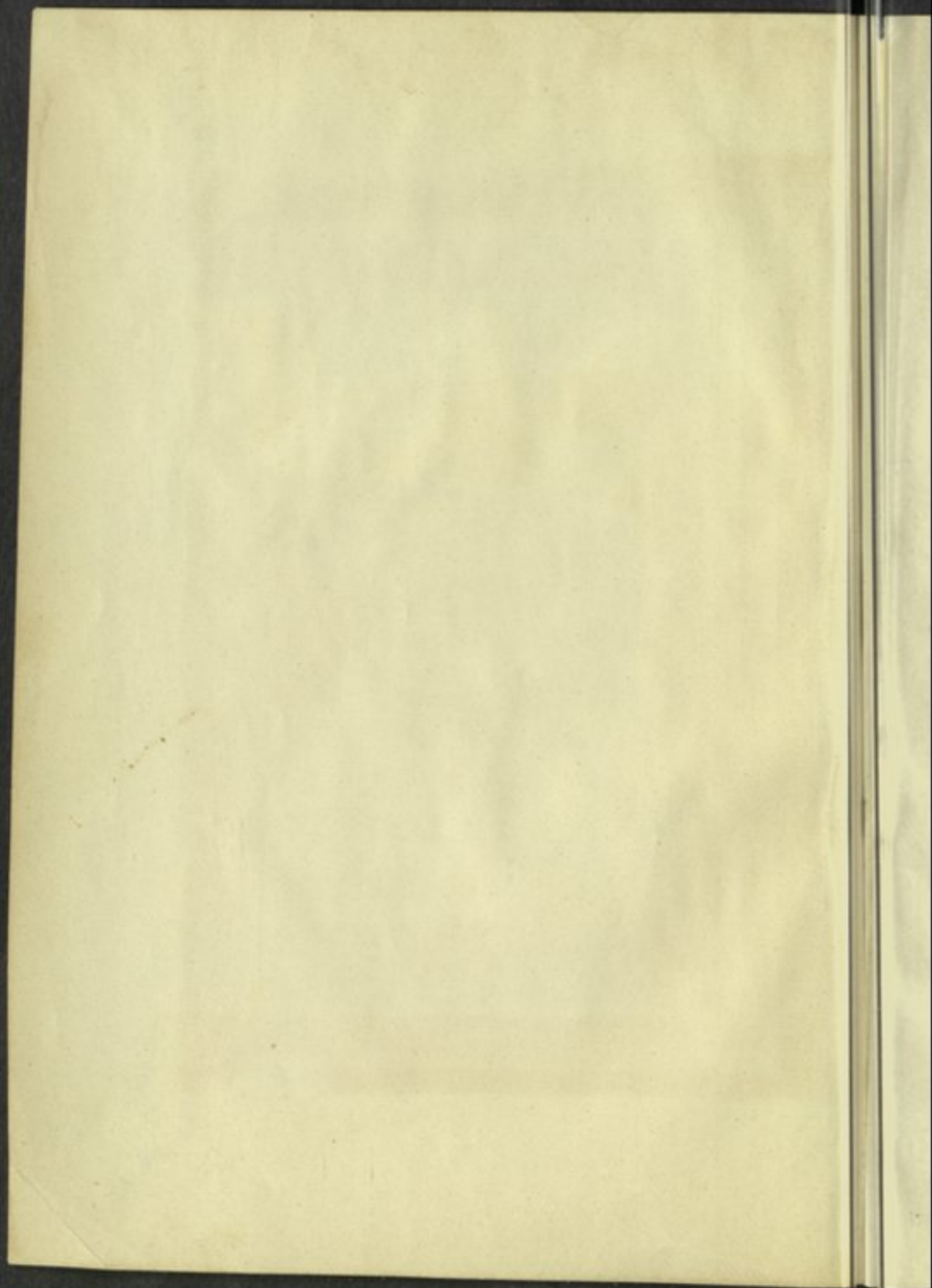
آل محمد في كربلاء

بين شهيد وشريد وجريح





ويطلب من

دار احياء الكتب العربية
عيسى البباني الحلبي وشركاه

صندوق بريد النورية رقم ٢٦ — تليفون ٥٠٨٥٦ — القاهرة



DATE DUE

297.09:A16aA:c.1

أبو النصر، عمر

علي وعائشة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01004023



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

General Library

297.09
AlbaA
C.I